هناك في هذا الكون،

حقائق مؤكدة،

وهناك احتمالات،

والحقائق لا تترك أي مجال لتواجد الاحتمالات،

ولكن خمّن؟

العكس أيضًا صحيح.

الفصل الأول
لعب أطفال

1977

واحد، اثنان، ثلاثة، ....

هم عشر ثوانٍ فقط.

إن استطعت البقاء صامدًا فوق تلك الألواح الخشبية التي تعلو البئر حتى عشر ثوان؛ فسوف تستطيع أن تسمع صرخاتهم.

حدق آدمُ في وجهها برعب، بينما أكملت سمرُ سردَ الحكاية، أنا لا أعلم مدى صدق قصة سماعك لأصواتهم من عدمها، ولكن كُلِّي يقين من أنَّ قصةَ الساحرة تلك حقيقية مائة بالمائة، أخذت كلمات سمر تداعب خياله، يسرح فيها طوال الليل وعندما لاح ضوء الصباح نهض مبكرًا، وارتدى ثيابه، تعجبتْ فاتن مشرفة الدور من هذا النشاط المبكر لآدم على غير العادة، اقتربت منه، وسألته باهتمام: إلى أين يا عزيزي؟! نحن في العُطلة الصيفية وليس هناك إفطار قبل الثامنة صباحًا، أجابها ابن الثمانية أعوام بكل صدق سأذهب إلى الحديقة الخلفية، هناك عمل مهم عليَّ الاهتمام به.

هل ستذهب للعب وحدك يا آدمُ، قبل أن تفطر؟

لا حاجة بي للإفطار اليوم، ولكني سوف أنتظر الرفاق لقد اتفق ثلاثتنا؛ أنا، وأمجد، وسمر على الذهاب.

تعجبت السيدة مرةً ثانيةً من هذا الاتفاق المُبيّت، لها الآن ثلاث سنوات تعمل بدار الأيتام تلك، ولعمرها لم ترَ ذلك الاهتمام، بل والاستيقاظ مبكرًا من قِبل أحد الأطفال، كانت دائمًا ما تحاول معهم الاستيقاظ مبكرًا قبل موعد الإفطار اليومي، ولكن أغلبهم كانوا يتذمّرون، يخبئون رؤوسهم تحت وساداتهم، حتى آدم نفسه، لطالما اختبأ منها، تذكر منذ عدة شهور في وقت الدراسة عندما دخل دورة المياه وأغلق الباب على نفسه ونام، حاولت جاهدةً الصياحَ عليه، ولكنه كان أشبه بالساقطين في براثن الغيبوبة، بلا أمل في أي عودة، نصف ساعة كاملة يطرقون الباب، يصرخون عليه، ولا حياة لمن تنادي، حتى حضرت السيدة دولت مديرة الدار، هما صيحتان فقط لا ثالثة لهما، وكان الباب قد فُتح، تذكر كيف أمسكت المديرة بأحد أذُني آدم ورفعته عن الأرض رفعًا، بالتأكيد هو أمر مؤلم بل وشديد الألم، ولكن الصبي تحمّله بلا بكاء، هي فقط دموع حبيسة تساقطت من عينيه، فهو يعلم أنّ البكاء ممنوع في الدار بأمر من المديرة، وعواقب مواجهة مخالفة لأمر واضح أصعب بكثير من العقاب على النوم سهوًا بالمرحاض، صحيح أنّ جميع الأطفال اصطفوا لمشاهدة الحدث الكبير، ولكن السيدة دولت كانت بالفعل تريد لهذا العرض التأديبي المسرحي أن

يظهر للنور، دقيقة من رفع الجسد الصغير عن الأرض من خلال أُذنه ثم بدأ جميع الأطفال يتحسسون آذانهم بدورهم في رعب، ثم أنزلته أرضًا، نظرت بعينيه نظرة بِلا كلام، ثم جالت بعيون جميع الأطفال بالدور، ثم انصرفت.

لا يستطيع أحد أن يغفل قدراتها، تلك الشخصية القيادية التي تتمتع بها، بالإضافة بالطبع إلى القوة الجسمانية الواضحة للعيان؛ كانت تناهز مترًا وثمانين سنتيمترًا في الطول، تزن قرابة المائة كيلوجرام، بلا شحوم واضحة، تكوين عضلي، منكبان عريضان، وصدر عامر، وجه دقيق يبرز عظام وجنتيها، مع تلك العينين الخضراوين الجميلتين وغير المتناسقتين مع بقية التكوين الجسماني لها، وكانت تغطيهما بعوينات زجاجية، السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو عن مدى احتياج مثل تلك السيدة لعوينات، فمثلها لا بُدَّ أن يكون نظرها ثاقبًا بالفعل، ولكننا توصلنا بالفعل إلى أنها قد تكون إحدى الوسائل الدفاعية التي تستخدمها، لتخبئ أية مشاعر قد تبدو آدمية بداخلها.

كثرت الأقاويل عن تاريخها، لكن الحقيقة تظلُّ دائمًا وأبدًا طي الصدور، كانت تزلزل الدار بمشيتها، كان صوتها قويًّا بحق، لدرجة تخال معها أن الهواء في الغرفة، وليس البشر فقط ملزمين على الإصغاء إذا ما تحدثت، بعضهم يدّعي أن تلك الشخصية القوية، وقسوة القلب هذه لم تأتِ من فراغ، بل جاءت من معاشرتها لرجُلٍ قاسٍ، سِكِّير كان دائم

تعذيبها هي وولدها، وفي الأخير تُوفي الطفل جرّاء ضرب مبرح من والده، دخل الرجُل السجنَ وقاطعت هي بعده جميع الرجال، كانت دائمًا وحيدة، كلامها مقتضب ولكنه فعّال، لطالما تخيّلت فاتن أنّ بداخل دولت قلبًا صغيرًا ينبض، ويختبئ خلف هذا الجسد العملاق، ويكتب في الصباحات اسم ابنها المُتوفّى بالندَى على نوافذ الدار، نفضت عنها تلك الأفكار، وأمسكت بوجنتيْ آدم وحدّقت بعينيه كثيرًا، ثم قالت: "أنت تعلم يا صديقي، أنّ هناك نظامًا قويًّا بالدار غير قابل للتغيير؛ الإفطار في الثامنة، والعشاء في السادسة، وتعلم أيضًا أنّ كائنًا مَنْ كان لن يستطيع كسر ذلك النظام، فلنهدأْ، ولنعُدْ إلى فراشنا؛ فإنّ جميع الرفاق مازالوا يغطُّون بالنوم، وعندما يستيقظ الجميع في السابعة والنصف، ويتم الفطور في الثامنة، تستطيع بعدها أن تفعل ما يحلو لك مع رفاقك".

قاطعها آدم منفعلًا: ولكني..

قاطعته بدورها؛ ولكنك دائمًا ما تغفل السيدة دولت..

حدق بعيونها الصبي برعب، وتحسّس أُذُنه اليمنى لا إراديًّا، ثم جرى صوْبَ الفراش، وغطّى جسده الضئيل بالشرشف بِلا كلمة واحدة، تأمّلته، وهي مبتسمة لثوانٍ، ثم غادرت الحجرة.

Screenshot saved

لَكَمْ تمنتْ في قرارةِ نفسِها أنْ تتخلصَ من هذا القلب

الرقيق الذي ينبض بداخل صدرها كأنه عصفور وليد، لم ينبت ريشه بعد، يرتجف في وجلٍ كُلما رأى طفلًا أو طفلةً، حرمها ربّها الإنجاب، عشر سنوات كاملة منذ تزوجت، ولم يأذن الله أن يحمل رحمها ولو عصفورًا صغيرًا، كانت تحبُّ زوجها بقوة، وتحبُّ بيتها، وتحب الدنيا كلها، بداخلها مقدار حُبّ لو وُزِّع على العالم بأكمله لفَاضَ وأغرقه، ولكنها مشيئة الإله، زارت وزوجها الكثير من الأطباء، أجريا المئات من الفحوص، ولكن الإجابة دائمًا كانت واحدة؛ أنتما الاثنان بخير وتستطيعانِ الإنجاب، ولا ندري لِمَ تأخرتُما كل هذا الوقت؟! أول سنتين من الزواج كانت متحمسةً بقوةٍ، لا تتركُ طبيبًا أو مركزًا طبيًّا إلا وارْتادته وحدها أو مع زوجها، ولكن مع مرور الأيام والسنوات، وزحَف اليأس لقلبها كثعبان أرقط، يأكل كل ما يلاقيه من ذرة أمل، أصبحت أقلّ اهتمامًا وإن لم تكن أبدًا أقلّ شغفًا بالأطفال.

زوجها تمسّك بها، حتى عندما طلبت منه الزواج بأخرى والدموع تملأُ عينيها، أمسك بيديها وقبَّلها، أخبرها يومئذ أنّ ربَّه قد رزقه طفلة كبيرة اسمها فاتن فاكتفى بها عن الأطفال، أخذ يعدد لها محاسن عدم الإنجاب، وهي تعلم جيدًا أنّ قلبه يكاد أن ينفطر لرؤية طفلٍ تمامًا مثل قلبها، وعندما التحقت بالعمل بدار الأيتام تلك، كانت في منتهى السعادة، تخيلت أنَّ كلَّ هؤلاءِ الأطفال الذين حُرموا مِن

أمهاتهم أبناؤها.

أنت أردْتَ طفلًا، فشاء ربُّكِ يا فاتن أنْ يهبَك مئات الأطفال، إن كان قلبك يصبو إلى الأمومة فلتهبي هؤلاء المساكين كل تلك الجذوة الموجودة بداخلك، فلتصُبي عليهم حبك وحنانك. حتى بالرغم من شقاوة بعضهم، وبالرغم من أفعالهم المُشينة إلا أنها لم تملك إلا أن تحمل لهم كلَّ هذا الحب.

يقولون إن الأطفال يشعرون بالحب ويبادلونك إياه حتى لو بدون كلام، المشاعر الصادقة تنفُذ إلى القلب لا محالة مهما حاول الجميع صدّها أو الوقوف أمامها، هي أحبّتهم بصدقٍ، بينما كانوا هم فيما بينهم يطلقون عليها "أُمُّنا" كانت لا تعلم تلك التسمية حتى أخبرها آدم، في يوم ارتكبوا فيه حماقة كبيرة فعنَّفتهم كثيرًا، ولكنه أتى إليها آخر النهار معتذرًا، وأخبرها ساعتها أنهم يدعونها بأمِّهم، ساعتها لم يحتمل قلبها المسكين، بل رفرف ذلك العصفور بداخله بجناحين صغيرين مليئين بالحنان، وتساقطت العَبَرات على شعر الصبي، وهي تحتضنه بصدرها.

***

في السابعة والنصف تمامًا صدر نفير الاستيقاظ، فهبَّ الجميع في نشاط مفتعل، يُلح بداخلهم نفس السؤال بلا إجابة شافية، إن كان وقت الدراسة قد ولى، فما الداعي إلى

الاستيقاظ مبكرًا؟

ولكنهم جميعهم يعلمون أن السؤال في حد ذاته يمثل خطورة كبيرة على آذانهم. تلك الأسئلة الثورية تمثل تهديدًا صريحًا عنيفًا على قوانين الدار، تلك القوانين التي سنها الوحش. كانوا يطلقون على السيدة دولت بالفعل لقب الوحش لما تتمتع به من قوة جسمانية كبيرة، بل وقوة روحية مؤثرة، كان الكل يرتجف من صوتها، ويأله من بائس من يقع في خطأ وتبصره بعينيها الزجاجيتين.

كانت الدار تتألف من أربعة أدوار، كل دور يتكون من خمسة عنابر كبيرة، وبعض الغرف الصغيرة نسبيًّا بالإضافة إلى دورات المياه، وغرف المشرفات، أما الدور الأرضي فيتكون من غرف للتدريس، وقاعتي طعام كبيرتين.

كانت الأدوار بالمبنى مقسمة حسب الأعمار؛ الأطفال الأكبر سنًّا في الطابق الأسفل يعلوه الأصغر، فالأصغر.

كان المبنى مُشيّدًا على الطراز الإنجليزي القديم، ربما كان قصرًا قديمًا لأحد النبلاء أو ما شابه، وبعد قيام الثورة تم استغلاله كدار للأيتام، كانت معظم الغرف واسعة بحق، حتى دورات المياه، النوافذ كانت عملاقة وارتفاع الأسقف لا يضاهيه أية مبنى من المباني الحديثة الحالية، كان مصممًا؛ ليبقى مئات بل آلاف السنين، تم بناؤه على مساحة فدان كامل من الأرض الزراعية، بينما تشغل

الحديقة الأمامية ما يقارب الخمسمائة متر مربع، ومثلها الباحة الخلفية والتي اكتظت بمئات الأشجار بعضها مثمر، وبعضها الآخر لا، كانت الباحة الخلفية تحوي بعض البنايات الصغيرة ذات الدور الواحد، والتي شُيدت كمبانٍ صغيرة خدمية مكملة للمبنى الأساسي، بعضها تبقى به بعض الأخشاب فيما يشبه الأسطبل، وبعضهم الآخر مخزن للغلال، كما كان يوجد بالباحة الخلفية البئر القديمة، وهي بئر مياه جوفية تم ردمها منذ زمن، كما تم تغطيتها ببعض ألواح الأخشاب حتى لا تزِلَّ قدم طفل بها، هناك مبنى آخر اتخذ شكل كاتدرائية صغيرة، وإذا استكملت طريقك عبر الأشجار الكثيفة الخلفية فسوف ينتهي بك الطريق إلى بحيرة صغيرة يشرف عليها من الجهة الأخرى مدينة بلطيم.

بالطبع تمَّ وضع الكثير من العلامات التحذيرية الفواصل والموانع؛ بعضها خشبي، وبعضها معدني للحيلولة دون ذهاب الأطفال بالدار لهذا الجزء القديم الملحق بالدار، ربما سُمح لهم فقط باللعب في الحديقة الأمامية، مع ممارسة بعض الأنشطة القليلة جدًّا بالباحة الخلفية. تأمل آدم المبنى الخارجي للدار بذلك الطلاء الأبيض المميز والذي مُحيت عدة أجزاء منه بفعل الرطوبة، تأمل تلك النوافذ الخشبية العملاقة التي تناهز ارتفاع الدور كله، تلك النباتات والشجيرات التي تسلقت بعض الحوائط في نهم ملحوظ، حتى وصل بعضها قرب سقف المبنى، بينما الْتف بعضها

حول النوافذ مكسبًا المبنى منظرًا مُقبضًا كقلاع البارونات بأوربا القديمة.

مال على أذن سمر، وهمس: لقد استيقظت مبكرًا كما اتفقنا، ولكنكم جميعًا كنتم تغُطُّون في نوم عميق، أمي فاتن حذرتني من النزول مبكرًا؛ فلربما قابلت الوحش -يقصد السيدة دولت مديرة الدار بالطبع- الْتفتت إليه سمر، والتي تكبره بثلاثة أعوام فقط، وقد تم جدل شعرها الكستنائي اللون على شكل ضفيرة جميلة حسب تعليمات الدار بالنسبة للفتيات، حدقت بوجهه بعينيها الواسعتين البنيتين، وهمست في قلق غير مصطنع؛ إياك أن تكون أخبرتها شيئًا عن سرِّنا.

ابتسم آدم في مكرٍ: وهل ظننتني غبيًّا، لقد احتطت جيدًا، أنا لم أعد صغيرًا يا صديقتي، وأعلم أن تلك الأمور لا بُدَّ أن تُحاك في الخفاء، هيا بنا إذًا للبئر، وهَمَّ بالركض، عندما أمسكت هي بيده بقوة مهدئة، اصبر يا آدم، الوقت غير مناسب الآن، أنت ترى كل الأطفال حولنا بالفعل، بالإضافة إلى المشرفات، أي حركة سوف تكون محسوبة علينا، ثم تراني لم أخبرك؟؟

تخبريني بماذا؟؟

أخبرك بأن ذلك الأمر لا يتم إلا ليلًا، غير قابل للتنفيذ إلا عندما يجنح الظلام، تساءلت عيناه بشوق بعد أن ذبحت الفتاة تلك الحمية والشغف بداخله منذ الأمس. ولماذا لم

تخبريني بهذا منذ الأمس؟ كان بإمكاننا أن نفعلها ليلًا.

الأمر يا صديقي ليس سهلًا إننا بحاجة لتخطيط، وإلا كيف سيتركوننا ننهض من أسِرّتنا مساءً، ونخرج من الدار ونتجه إلى الباحة الخلفية، كل هذا بالطبع لن تسمح به الوحش ولا مشرفوها، لا بُدَّ أن نتحين الفرصة، إلا إذا وددت أن يُفسد الأمر كله.

- نظر بعينيها معاتبًا، ثم أومأ برأسه قائلًا: للأسف معك كل الحق، ولكن ذلك لا يمنعنا من الذهاب إلى هناك الآن، ومعاينة البئر لكي نضع خطتنا. فأردفت: قد رأينا البئر آلاف المرات فيما ستفيد معاينته.

لا أدري يا سمر مجرد رؤيته تثير في نفسي الرهبة والشغف، أريد أن أعلم إن كانت الحكاية التي ترويها حقيقية أم لا.

بالتأكيد حقيقية.

كان صديقهم الثالث أمجد قد حضر بتلك الخدود المكتظة والبطن العامر واللون الأبيض الشاهق والعيون الرمادية، وبدأ يلهث من فرط بضع خطوات خطاها إليهم، حياهم، فتوجهت سمر إليه بالسؤال، وهي تشير إليه بطرف عينيها في الخفاء؛ لكي لا يلاحظ آدم: أليست حكاية الساحرة والبئر حقيقية يا أمجد.

كان الطفل ذا العشرة أعوام ما زال يلهث عندما ابتسم

ابتسامة ماكرة، وقال من بين أسنان اسودت معظمها: وأي حقيقة يا عزيزتي إنه الرعب الخام، ثم تحوّل وجهه إلى الجديّة الشديدة وهو يحدق بعيني آدم مباشرة فزع رهيب يا آدم. أمور من في مثل سنك من الصغار لن يتحملها.

اضطربت مشاعر آدم ما بين خوف ووجل وامتقع وجهه، بينما أكمل صديقه وهو ينظر للفتاة بطرف خفي يكاد يخفي ابتسامة فلتت منه قهرًا؛ من الواضح يا صديقي أنك لم تفهم أو تقدر حتى الآن حجم الأمر، إنه رعب قاسٍ، لا يتحمله أعتى الرجال، فكيف بطفل ما زال يبول على نفسه، ثم أخذ يقهقه، نظر له آدم في غضب، ووجهه يملؤه الحزن على ما فرط فيه من إخباره بما حدث له في إحدى الليالي عندما خُيل إليه أن هناك شبحًا كبيرًا خرج من تلك البئر وحاول التهامه، وعندها تسرب ذلك السائل الدافئ رغمًا عنه؛ ليبلل سرواله، بل وكل ملابسه، وبالمناسبة تلك كانت هي المرة الأولى والأخيرة التي يجري له فيه مثل هذا الشيء، ولكن أمثال أمجد السمان لا يفهمون تلك المشاعر، فهو طفل شرِه بطبعه، يجيد التهكم والتلمظ.

يا ليتني ما أخبرته، ولكن لا بُدَّ لي من صديق لأخبره، وبالطبع لن أخبر سمر فهي مهما كانت فتاة، ولن أستطيع إخبارها بهذا الشأن، ولكن هاهو النذل يخبرها بكل قسوة بِسِرِّي الدفين، ويفضحني على الملأ، أخذا يتضاحكان؛ سمر وأمجد، وعندما هممت بسبِّه أخذ يركض، بالطبع لثقل

وزنه أدركته في ثوانٍ، وانْهالت عليه صفعًا، بينما كان هو مازال لا يتمالك نفسه من الضحك، لحقت بنا سمر وفضت الاشتباك في يُسرٍ، مخبرة إيانا إن ما نفعله بجهل لكفيل بإيداعنا بغرفة الفئران الحجرية، وهي غرفة عادية بالطبع ولكن مسمع اسم الغرفة مازال له وقعه المخيف في ذهن الصبية، بالرغم من إدراكهما الكامل أنها لا تعدو كونها غرفة حجرية عطنة مقبضة تحبس فيها السيدة دولت الطفل المشاغب حتى يتعلم الأدب، والحق يقال أنه ما من طفل دخلها وخرج إلا وقد تعلم بالفعل الأدب، ولحسن حظ ثلاثتهم لم ينل أيهم شرف الحبس بها حتى الآن.

كله إلا غرفة الرعب هذه كان هذا أمجد الذي توقف عن الضحك، تذكرون ذلك الطفل الأبله الذي قام بالبصق على الحائط، ولسوء حظه الشديد كان الوحش بنفسه يقف مراقبًا، وسرعان ما أصدرت فرمانًا بإيداعه غرفة الفئران، جلس بها ساعتين، ثم شرع يصرخ، كأنه يُذبح بالداخل، وافقت الوحش على إخراجه بعد الساعتين لحداثة سنه والرعب الشديد الذي شعر به، ولكن ذلك الطفل بعدها لم يعد يحادث أحدًا، ترك رفاقه، يجلس دائمًا وحيدًا شاردًا، بعض الحكايات بالدار تدعي أنه فقد إصبعين من عضة فأر ضخم بالفعل يسكن تلك الغرفة المرعبة.

دعونا من هذا، أريد أن نضع الخطة الآن حتى نفعلها الليلة عندما يحل المساء، ابتسمت سمر ثانية، ونظرت

لأمجد، والابتسامة تكاد تشي بها: وهو كذلك، سوف نذهب للنوم ككل ليلة، في التاسعة ولكننا لن ننام، بل سندعيه، حتى إذا أُطفأت الأنوار، خرج كل منا من عنبره في هدوء، المشرفة العامة الليلة هي عفاف الغبية، وهي تنام طوال الليل لا أتذكر أني رأيتها يومًا، بل أحيانا ما تترك الدار وتذهب للقاء خطيبها أو زوجها لا أعلم، سوف نتقابل بالطابق السفلي، وسوف نخرج في هدوء، حذار أن يراكم أحد، وابتسمت رغمًا عنها، وهي تكمل؛ وإلا كُتب على ثلاثتنا التبول اللاإرادي مدى الحياة بتلك الحجرة المشئومة.

قهقه أمجد، وأضاف: لا سوف تقرض الفئران فقط أطرافنا أما آدم فسوف يتبول على نفسه كعادته.

صاح آدم معارضًا، وهمَّ بضربه من جديد بينما حدقت سمر فيهما مؤنبة، لا نريد جدالًا ثانية. اتفقنا على الموعد، هلمَّ، فلنفترق الآن وعلى موعد باللقاء في التاسعة والربع.

***

رحل الولدان بينما جلست سمر وحدها في الحديقة تتأمل الأشجار والزهور، كانت الشمس قد انتصفت في كبد السماء وطفقت ترسل خيوطها الشجية مداعبة بانعكاساتها عيون الجميع، بينما بدأت بعض الخيوط تتسلل في حذر بين ثنايا أوراق الأشجار، فتتلألأ وكأنها جمر من ذهب،

سرحت سمر مع خيوط الشمس الذهبية، هي بالطبع تعلم عدم وجود أصل للحكاية، تلك الحكايات يرونها للأطفال ليروعوهم بها، ولكنها وجدت فيها مجالًا خصبًا للتسلية على هؤلاء الصبية، لا بأس من بعض المرح، منذ مجيئها لتلك الدار من ثلاث سنوات، وهي تهوى المرح تحب الضحك كثيرًا، ولا بأس من بعض المقالب في حدود المسموح، كانت دائمًا مبتسمة، وإن كان وجهها الجميل الدائم الابتسامة لا يعكس أبدًا ولو شيئًا يسيرًا مما يدور بداخلها من حزن دفين، وبالرغم من سنوات عمرها الإحدى عشرة إلا أنها لا تعلم السبب الرئيس في كل هذا الحزن الذي يعتصر قلبها، فتبدي على محياها الابتسام؛ لتداري ما يعصف بداخلها من ألم، لا تدري ربما كان السبب وفاة أمها وهي بعد طفلة في المهد، فنشأت لا تدرك معنى الأمومة أو لفظة أم، عندما فتحت أعينها على الدنيا وجدت أباها متزوجًا من امرأة تطلق عليها أمي على الرغم من أن المرأة لم تستطع يومًا أن تدعوها ابنتي.

وشيئا فشيئا أدركت بالضرورة أن تلك المرأة ليست أمها بمكان، كانت امرأة قاسية، تنتهز أي فرصة لتنهال عليها بالضرب، ضربًا مبرحًا أليما، وعندما كانت تشتكي لأبيها، وعندما يحدث الرجل زوجته، تتهمها الزوجة بالكذب، وتفرض عليها عقابًا جديدًا. بالطبع كانت تخطئ كما كل الأطفال، كانت تشاهد الألعاب الجديدة والملابس الناعمة

على أخيها من أبيها، أما هي فلا تتذكر أن ابتاع لها أحد لعبة جديدة أو ثوبًا ملونًا.

وبضرورة الحال، وبالرغم من احتمالها لشتى ألوان القسوة من أم ليست بأمها، إلا أن الأم مع حضور طفل جديد، رفضت كليًا بقاءها بالمنزل، ووجد الأب الضعيف أمامه حلين، الأول: أن يطلق تلك المرأة العنيفة القاسية، ويعنفها من أجل ابنته التي لم تبلغ السابعة بعد، والحل الثاني أن يسلمها لأخته؛ لترعاها بجانب أبنائها نظير مبلغ مالي ضئيل يجود به عليها أحيانًا، وأحيانا يتناسى. وبالتأكيد اختار الأب الخيار الثاني.

لم يكن زوج عمتها بأرفق بحالها من زوجة أبيها، فمنذ اليوم الأول لها بمنزله وضع بعض الشروط على زوجته، إن كان أخوك أرسل لنا تلك المصيبة؛ ليعيش هو هانئًا، فأنا سأقبل بها في حالة واحدة هي أن تكون خادمة بلا أجر، يكفي أن نطعمها ونسقيها. تأكل وحدها بالمطبخ بعد انتهائهم من الطعام، تمسح وتكنس، بل وتطبخ، وهي لم تتعدَ السابعة من العمر، وإذا أخطأت فالعقاب ليس غرفة حجرية يتم حبسها بها، كتلك التي يتحدثون عنها بالدار.

أخذت تتذكر، وهي تمسك بيديها وتنظر إلى ذلك الأثر الأسود الدال على حرق قديم، آلمتها الذكرى، وهي تسترجع كيف أمسك بقداحته وأخذ يلسعها في نواحي متفرقة من جلدها، وعمتها تقف لا حيلة لها، فقط لأنها كسرت صحنًا

صغيرًا أثناء قيامها بالغسيل.

عندما تصبح الحياة مستحيلة، بل قد يكون الموت أرحم كثيرًا، حدثت نفسها كثيرًا برغبتها بالموت، فقط لو تعلم كيف، هي تعلم أن هناك ربًّا تعبده، كما يعبده زوج عمتها، ولكن ألم ينهه ربه عن ضرب الصغار وتعذيبهم وإذا لم ينهه ربُّه، لماذا لا يحميها منه، لكَمْ دعته كثيرًا، وهي تبكي وحدها تدفن رأسها على تلك المرتبة القديمة التي وضعوها لها بذلك الركن القصي بالمطبخ بجانب سلة المخلفات، المرتبة نفسها تعاطفت معها فابتلت حتى تهتكت، ولكن بلا خلاص، حتى شاء الله أن تمرض عمتها، ويبقى ذلك اليوم الأليم عالقا بذاكرتها الصغيرة لا يفارقها لحظة واحدة، مثله كمثل تلك الذكريات التي لا نستطيع أن نمحيها مهما تخيلنا قدرتنا على النسيان، فلا نجدنا نتذكر غيرها، تذكره جيدًا كأنه الآن.

كانت تنام على مرتبتها المتهالكة بالمطبخ معطية ظهرها للباب وفي جنح الليل سمعت صريرًا لباب المطبخ، رأت على الضوء الضعيف المنبعث من الردهة بالخارج خيال أسود طويل يظهر على الحائط أمامها، ليس هناك أية مشاكل، ربما استيقظ أحد أبناء عمتها أو أبوهم ظمآن يريد أن يتجرع بعض الماء من الثلاجة بالمطبخ، انتظرت حتى يغيب الظل أو تسمع صوت فتح الثلاجة وإغلاقها، ولكنها لم تسمع، بل إنها لاحظت اقتراب الظل على الحائط،

فأدارت ظهرها لا إراديًّا؛ لتفاجأ بزوج عمتها الرجل القاسي العنيف، يحاول التقرب إليها، لم تدرك في البداية ما يحدث أو ما يريد منها، ولكنها فوجئت به يضع يده الشريرة التي طالما حرقتها بالنيران على مواضع حساسة من جسدها الصغير، كانت لا تعلم معنى هذا، لكنها بالتأكيد تدرك أن ثمة أمر غير طبيعي، خاصة عندما خلع الرجل ملابسه ليقترب منها، عندها بدأت ترتجف، بينما اقترب هو كذئب محروم، كخنزير أرهقته كثرة أكل القاذورات؛ فقرر أن يأكل وجبة نظيفة طاهرة، لم تشعر بنفسها إلا وهي تصرخ، كتم صوتها بيده، كان يريد شيئًا لا تفهمه، ولكنها عضته بأسنانها، وخرجت تجري على عمتها المريضة، حكت لها عما كان زوجها يفعله، فعاتبت الزوجة الكسيرة زوجها، لكنه صاح مكذبًا، اتهمها بالكذب الشديد، وبأن أمثالها لا بُدَّ أن يُعاقب لمعرفته بتلك الأمور المحرمة، بل ادّعى أن تلك الطفلة المسكينة المعذبة هي التي راودته عن نفسه، واتخذ ساعتها القرار، حرق جديد بالنار على أجزاء جسدها الحساسة التي ادعت أنه لامسها الآن على مرأى ومسمع من الجميع، ولكنها لم تحتمل هذه المرة، فانتظرت حتى حلّ المساء التالي، وخرجت من المنزل، ولم تعد له ثانية.

ابتسمت من الذكرى، وأخذت تضحك، محدثة نفسها، تظنون أن حياتكم بالملجأ هنا قاسية، أنتم لم تعركوا الحياة مع زوجة أب أو زوج عمة مغتصب مريض. قامت من

مقعدها بالحديقة، وتجولت في أنحائها الواسعة، ثم عادت إلى الدار.

***

دقات الساعة الأثرية الكبيرة بالدور السفلي من الدار تصرخ معلنة التاسعة، إذًا هو نفير النوم، من ذا الذي يجرؤ أن يظل مستيقظًا بعدها، حدث نفسه وهو يجذب غطاء السرير متطلعًا إلى كل الموجودات بالحجرة، تم إطفاء الإضاءة الضعيفة بالعنبر، كل الأطفال الآخرين في أسرتهم، لطالما جلس طويلًا لا يستطيع النوم، ولكن الأوامر تقتضي أيضًا ألا يبقى مستيقظًا، ما زال صغيرًا في السن، ولكنه يدرك جيدًا أن النوم لن يكون أبدًا بالإجبار، أنت تستطيع أن تجبرني على أن أدخل السرير، أن أطفئ الأنوار، أن أغمض عيناي، ولكنك لن تستطيع أن تجبرني أن أغط بالنوم أو أن تجبر النوم أن يغشاني.

سرح بذهنه في خطة الليلة، ما هي إلا دقائق معدودة وتبدأ أولى خطوات مغامرتهم الموعودة، ماذا إن رآني أحد الأطفال الذين لم يغطوا في السبات بعد؟ لا أحد سوف يتكلم، الكل يخاف من السيدة دولت، يخافون أيضًا أن يفشوا بعض الأسرار، مبدأ قديم أن البعد عن المشاكل غنيمة تُقتنص، بدأ ذهنه يسترجع تلك الحكاية التي لم تفارق مخيلته منذ أخبرتهما بها سمر؛ تحكي الأسطورة عن ساحرة عتيدة كانت تعيش في تلك البلدة قبل أن يؤسسوا

فيها الدار بزمان، كانت تسكن تلك الضواحي، وكانت مغرمة بالأطفال تستخدمهم في ألاعيبها، ذات يوم مُقبض خطفت عشرات الأطفال، قيدتهم، وقامت بترتيبهم حسب الأعمار، ثم أجبرتهم جميعًا على تجرع السُّم في الماء، بعضهم يروي أنها شنقتهم جميعًا، ثم قطعت جثثهم، لكن النهاية الوحيدة المتفق عليها بالرواية هي أنها ألقت جثثهم جميعًا بالبئر القديمة تلك البئر القابع في الباحة الخلفية للدار لا يفصله عنا إلا بضعة خطوات، إلى هنا تنتهي الرواية ولكن ما أخبرتهم به سمر هو أن أي أحد شجاع بما يكفي يستطيع أن يقف فوق غطاء هذه البئر لمدة عشر ثوانٍ كاملة، يستطيع أن يسمع أصواتهم، صرخاتهم، معاناتهم، وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة.

بالطبع ادَّعت سمر أنها سمعت أصواتهم، أما هو فما زال حائرًا، لا يستطيع أن يصدق وفي نفس الآن يلعب بصدره ذلك الخوف اللذيذ من المجهول، ذلك الشيء الذي يجبرك أن تركب الصاروخ بمدينة الملاهي، رغم أنه قد يوقف قلبك من الرعب، وهو هو نفس الشيء الذي يجعلك تتمنى أن تدخل بيت الرعب، بل وتدفع المال؛ لكي تتم إخافتك، إن الخوف من المجهول له تأثير ساحر، تترقب، ترتبك، تخاف ربما، ولكنك تشعر بتلك المتعة الخفية، والتي لا يضاهيها متعة عندما تقف تلك الشعيرات الحساسة على ساعدك. أو تلك الرجفة المحببة أسفل ظهرك.

نفض عن ذهنه أفكاره، وتهيأ لمغامرتهم الموعودة، رفع رأسه ببطء ليجول بعينيه بالعنبر الكبير، بعض الأطفال علا صوت غطيطهم في النوم بالفعل، بينما بدا أن الآخرين ما زالوا يجاهدون ذلك السلطان القديم قبل أن يقعوا في قبضته، أزاح غطاء سريره بحرص، وضع أولى قدميه على الأرض، عندما لمح خيالًا لشخص يمر من أمام باب العنبر المغلق، جفل واضطرب، ثم هدأ من روعه رويدًا، ربما كانت المشرفة الليلية تقوم بأعمال التفقد الأخيرة قبل أن تخلد هي الأخرى للنوم، هو لا يملك ساعة يد، ولكنه خمن أن الساعة الآن لا بُدَّ، وأن تكون قد تجاوزت التاسعة والربع بالفعل، فكر أن ينهض ويجرب حظه، ولكنه آثر أن ينتظر حتى يتم إطفاء الأنوار الخارجية.

مضى الآن تقريبًا ربع ساعة أخرى، وما زال الضوء بالخارج مشتعلًا، لا بأس من بضع دقائق أخرى، تساءل: يا تُرى أين رفيقاه الآن؟ بالتأكيد قد نزلوا بالفعل، فالفتاة سمر جريئة بحق، لقد دخلت أمامه ذلك المبنى القديم بالخلف والشبيه بالكاتدرائية، والتي أخبرتهم أيضًا أنه المكان الذي كانت الساحرة الشريرة تقتاد إليه ضحاياها؛ لتشرب من دمائهم، رباه إنَّ شُربَ الدماء هذا لشيء شنيع بالتأكيد، تذكر الطعم المعدني للدماء عندما سقط أثناء اللعب وجرحت شفتاه، لم يكن طعم الدماء جميلًا أو مثيرًا، بل كان مقززًا، تُرى لماذا تحبه هاتي الساحرات.

مضى الآن بالتأكيد أكثر من نصف ساعة، ومازال الضوء بالخارج مُضاء، تشجع بعض الشيء وأنزل قدميه للأرض، الآن يكاد يسمع غطيط جميع الأطفال في النوم، وقف على قدميه، وتمشَّى بحرص شديد جهة الباب، أمسك المقبض وأداره ببطء، فتح الباب القديم لحسن الحظ بلا صوت يُذكر، أخرج رأسه الصغير بهدوء ونظر بالخارج، كل شيء ساكن، عندما سمع صوت أحد الأطفال من خلفه ينادي عليه من داخل العنبر، الْتفت بسرعة، وأشار إلى الطفل بالصمت، سأله الطفل بصوت خافت: ماذا تفعل يا آدم، إلى أين تذهب؟ لو رآك أحدهم فسوف تُعاقب عقابًا شديدًا، اقترب آدم منه قائلا: لا حاجة لي بنصائحك، اصمت، وعد لنومك.

لا لن أصمت، أريد أن أعلم ماذا تفعل؟ إلى أين تنتوي الذهاب في الليل؟ تصنَّع آدم الأهمية، وقال بصوت عميق: أنا أقوم ببعض أعمال السحر، وذاهب الآن إلى البئر القديمة بالباحة الخلفية، ارتجف الطفل قائلًا: ماذا تقول؟! خطر جدًّا، وقبل أن يكون خطرًا؛ فإن المشرفة لو علمت فلسوف تبيت ليلتك في غرفة الفئران.

ضحك آدم قائلًا للطفل الأصغر منه بعام أو ما يقارب: عُد أنت لنومك، وسوف ألقاك في الصباح؛ لأحدثك بمغامرتي.

استجاب الطفل، وإن ظلت عيناه معلقة بجسد آدم في ظلام العنبر، الذي توجه للخارج، اندهش آدم بالفعل من بقاء الضوء كل هذا الوقت، وندب حظه العاثر، بالتأكيد

سمر وأمجد ذهبا منذ زمن، نزل بحرص شديد يتسحب على سلم الدار الحلزوني الكبير، جيد لا يوجد أي أثر للمشرفة، نظر للساعة الأثرية بالدور الأرضي وجد عقاربها تقترب بنهم شديد من العاشرة، أسرع يخرج من الباب، وجده مغلقًا، ذهب إلى مكتب المديرة، بالتأكيد هي في بيتها الآن تعذب أبناءها أو زوجها، أدار المقبض فانفتح الباب، تهللت أساريره، لقد خدمني الحظ أكثر من مرة هذه الليلة، اقترب من أدراج المكتب، بالتأكيد هي تحتفظ بنسخة من مفاتيح الباب الخارجي هنا، إن لم يحتوِ مكتب الوحش على نسخة من مفاتيح الدار، فأين سأجدها؟

فتح الدرج الأول فوجد الكثير من الأوراق، لا وقت لديه الليلة لتصفحها ربما عندما يجيد القراءة جيدًا، سيأتي يومًا؛ ليعلم كافة أسرار تلك المرأة المتوحشة، فتح الدرج الثاني فانفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة أرشميدس عندما سقطت منه قطعة الصابون خارج المغطس، وقال: وجدتها، سلسلة مفاتيح كبيرة، التقطها بسرعة، رباه! الحظ مازال يحالفه بعنف ويصر على نجاح مغامرته، حتى في عدم وجود سمر أو أمجد، فسوف يكمل وحده، لقد قرر أن يقوم بالمهمة الليلة، ولن يثنيه عنها إلا الموت.

تأمل في سلسلة المفاتيح وجد مفتاحين كبيرين مختلفين عن باقي المفاتيح؛ أحدهما شكله أثري قديم، خمن أنه المفتاح المنشود، وضعه في فتحته بالباب وأداره؛ ليسمع

تلك التكة المميزة المحببة للآذان، دفع الباب برفق، أخرج المفتاح من ثقبه ووضعه بجيب سرواله، لقد أصبحت كبيرًا الآن يا آدم، من ذا الذي سيقف أمامك بعد ما تخطيت كل تلك العقبات، لن أسمح لأي مجال للخطأ، سوف أكمل مغامرتي، وأتحدى تلك الساحرة وأطفالها الموتى، وأعود لأنام في سريري، دون أن يشعر أو يدري أحد، فقط لو كنت أملك كاميرا تصوير؛ لسجلت تلك اللحظات الرائعة، أغلق الباب خلفه، وتوجه إلى الباحة الخلفية.

***

وقف الطفل يلهث، الدموع كانت تغرق عينيه، فشلت كل محاولات عفاف مشرفة الدار الليلية في تهدئته، أكرم يا حبيبي اهدأ، واحْكِ لي ماذا رأيت؟

أخذ يرشف مخاط أنفه ويمسح دموعه، وتحدث بصوت مخنوق رغمًا عنه؛ لقد حذرته وأخبرته ألَّا يخرج، ولكن آدم كان عنيدًا جدًّا، صمم على الخروج، أخبرني أنه يقوم ببعض السحر قرب البئر القديمة بالباحة الخلفية، لم تدرِ عفاف ماذا تفعل، إن علمت دولت شيئًا عما حدث تلك الليلة؟ فلن تمر الأمور مرور الكرام، ستعلم بالتأكيد إنها تترك نوبتجيتها وتعود إلى بيتها؛ لتنام وسط أبنائها قريرة العين، وقبل السادسة صباحًا تكون بالدار قبل وصول أي أحد، لها الآن سبعة أشهر على هذا النظام المتكامل الذي وضعته، تترك أنوار الطرقات أمام الغرف والعنابر من

الخارج مُضاءة؛ حتى لا يجسر أحد على الخروج، خلال سبعة أشهر كاملة لم تحدث أية مشكلات، أخذت تدعو في بالها على هذا الشيطان الصغير ورفيقيه اللذين تسببا في كل تلك الفوضى، والتي قد تصل إلى قطع رزقها، وإيقافها عن العمل، هي لم تفعل أي شيء؛ هي فقط نامت، أليس الطبيعي أن ينام المرء؟ ولكن دولت لن تتحمل تلك الفلسفة في الحياة، كانت تعلم إنها إن لم تستطع السيطرة جيدًا على الأمر خلال دقائق؛ فسوف تكون نهاية عملها بالدار اليوم.

كان معظم الأطفال بالعنبر قد استيقظوا على الأصوات، فصاحت فيهم محذرة، فليعد كل لسريره، اهدأ يا أكرم، وأخبرني بهدوء ماذا حدث؟ لقد استيقظت على صوت باب العنبر وهو يُفتح، رأيت آدم يريد أن يخرج، ناديت عليه، وحاولت أن أحذره، ولكنه أخبرني أن لديه بعض الأعمال الخاصة بالسحر حول البئر القديمة، وطلب مني أن أعود للنوم، بينما سيخبرني هو في الصباح ما حدث، قالها الطفل وهو يرتجف، مسح المخاط الذي يسيل من أنفه بملابسه واستكمل، حاولت النوم بعد نزوله ولكني لم أستطع، مر الكثير من الوقت، وتذكرت أن تلك النوافذ الزجاجية، وأشار إلى النوافذ الزجاجية الكبيرة بالعنبر، تطل على الباحة الخلفية بالفعل، وجدت بنفسي بعض الشجاعة، ونزلت من سريري، وذهبت إلى النافذة؛ لأنظر من بعيد ماذا يفعل؟

وأخذ صوت الطفل يتهدج بالبكاء، بينما استحثته هي أن

يكمل، في البداية وعلى ضوء القمر الضعيف رأيته واقفًا على الغطاء الخشبي أعلى البئر، ظل واقفًا بمكانه فترة لا بأس بها، لا يفعل شيئًا ربما فقط يحرك شفتيه، حتى أني شعرت بالملل، وهممت أن أعود إلى فراشي، عندما... عندما، وجعل يبكي في ذعر، ويشد غطاء سريره فوقه، عندما ماذا أكمل؟

عندما رأيت دخانًا كثيفًا يخرج من تحت البئر، ويتمثل على هيئة امرأة مخيفة متلفعة بالسواد، تلك المرأة اقتربت من آدم واحتضنته، عندها أخذت أصرخ وأصيح حتى استيقظ معظم الأطفال من النوم، ثم حضرت أنتِ.. قامت بسرعة، ونظرت من النافذة الزجاجية فوجدت آدم بالفعل يبدو من بعيد واقفًا أعلى البئر، وكأنه لا يشعر بالزمن. هبطت بسرعة إلى الأسفل، وهي تصيح فيهم قبل أن تهبط، إياكم أن يتحرك منكم أحد.

فتحت باب الدار، وكانت الساعات الأولى للصباح تلقي بنسمات الصبا اللطيفة عندما جرت مسرعة تجاه الباحة الخلفية، رأته من بعيد، فتوجهت صوبه إلى أن اقتربت منه، الطفل بالفعل يقف أعلى فوهة البئر الذي تغطيه بعض الألواح الضعيفة، كانت الألواح تأنُّ تحت قدميه، بينما كان الطفل مغيبًا تمامًا، كان ما زال يقوم بالعد؛ واحد.. اثنين.. ثلاثة... حتى يتم العشرة، ثم يعيد الكرة ثانية وثالثة، يبدو أنه أعادها آلاف المرات، منذ خرج من الدار مساء

حتى أشرق الصباح، بدأت تحدثه برفق؛ آدم... آدم.. هل تسمعني؟ ولكنه كان كمن سقط في براثن جُب من الوهم، يردد الأرقام برتابة رهيبة تبعث في النفس الرعب، تشجعت وبدأت تقترب ببطء شديد من البئر، بينما حرك الولد قدميه ببطء فوق الألواح، فأصدرت أنينًا منذرًا بتهشمها، رباه لو سقط هذا الملعون ودُقت رقبته، لأتهموني بالتقصير، بل من الجائز أن يودعوني السجن أيضًا، لا، اثبت يا آدم، اثبت لا تتحرك.

بالطبع عضلات الطفل وهنت من الوقوف طوال الليل، ما يقارب العشر ساعات كاملة على هذا الوضع العجيب.

اقتربت أكثر، صار لا يفصلهما الآن إلا خطوة واحدة، قدمي الطفل تتحرك، صوت تهشم الأخشاب يصدع.

الفصل الثاني

غير نظيف

2016

تنهمر الأمطار على تلك النافذة العريضة بجواري، تتعانق مع بعضها بعضًا في أنس وانسجام، تشكل وديانًا وأنهارًا على زجاج النافذة، تزداد زخات المطر حدة، أتأملها وأنا أرشف قهوتي الدافئة، أحتضن الفنجان بيديّ الاثنتين، أراقب المارة في الخارج يركضون، كم أعشق هذا المشهد، أشعر أن مرأى الأمطار، رائحتها مختلطة بأريج قهوتي المسائية يقومان بغسلي من الداخل، طفل شقي يعمده يوحنا في مياه نهرالأردن؛ فيخرج طاهرًا بغير سوء، جميع من في المقهى يرتجفون من برد الشتاء، بينما كنت أنا متدثرًا في معطفي الجوخ الثقيل أبتسم.

بدأ ذهني يتذكر ذلك الكابوس العجيب الذي يداهمني مؤخرًا كلما أغمضت عيني، صرت أكره النوم من أجله، رُحت أتذكر ذلك الحلم الرهيب بكل ملامحه، تلك المرأة المخيفة المتشحة بالسواد ذات صوت كصرير باب حجري قديم، كعزف صراصير الحقل في ليلة صيفية قرب الزراعات، أراها بوضوح تقترب نحوي باسطة ذراعيها، تعتلي وجهها القبيح تلك الابتسامة المرعبة المؤلمة، والتي تجعل النيران تسري بعروقي، وتصيب جسدي بالشلل، ثم

أجد نفسي فجأة أركض داخل متاهات وأنفاق، أحاول الفرار منها مذعورًا، لا أراها ولكني أشعر بها خلفي، أحاول الفرار من تلك الحيذبون الرقطاء، ولا أدري لمَ لا أتعلم الدرس؟ ففي كل ليلة أُصر على الباب الخطأ والمدخل الخطأ، أدخل بقدماي النفق الخطأ، وبينما أنقب بيأس عن مهرب أسمع صوتها المؤلم لآذاني يتفاخر مستهزئًا بي؛ "هل حقًّا تظن أنك تستطيع الإفلات مني؟ وأين ذلك المكان الذي لا أستطيع أنا الوصول إليه؟"

وفجأة أرى وجهها القبيح يداهمني، تمد أظافرها الحادة تجاهي، لا أعلم من أين جاءت؟ ثم تقع عيناي على بصيص ضوء في نهاية الممر المظلم، فأسرع إليه على أمل أن يكون هذا ضوء النهار الذي سينقذني منها، فإذا بي أجدني أسقط في هوة سحيقة، جُب عميق، لا تبصر له قرار، فقط أشعر بجسدي يهبط، حتى أفيق من النوم. لا أدري سببًا وجيهًا لتكرار هذا الحلم الرهيب.

أنا رجل العلم والطب النفسي والأحلام، أجد نفسي عاجزًا عن فك شفرة هذا الكابوس؛ حتى عندما لجأت لأحد أساتذتي طلبًا للعون أخبرني أن تشخيصه لحالتي لا يتعدى كونه أضغاث أحلام.

ثم يجهز عليّ؛ مجرد حلم سببته بعض الشحوم والدهون الزائدة أو ذلك العشاء الدسم الذي تصر والدتك عليه كل مساء، وعندما لجأت للوالدة، وهي صاحبة رأي سديد

في تفسير الأحلام لطالما رأيتها تفسر لجاراتنا في الحي أحلامهن التي لا تتحقق. حركت رأسها في أسى، وأفادت والدتي الحبيبة بأن السبب الأصيل في هذا الحلم السخيف هو بالطبع حياتك العزوبية وعزوفك التام عن الزواج، لو كان عندك زوجة وأطفال؛ لما رأيت تلك الكوابيس. سبحان الله، أنا أكاد أجزم أني لو كان لي بالفعل زوجة وأطفال لرأيت كوابيس أبشع بكثير.

كل الأمهات ترى نجاة أبنائهن في الزواج، وبداية حيواتهم مع امرأة جديدة، فإذا جاءت المرأة الجديدة، قلبت حياتها جحيمًا لسرقتها مشاعر وليدها منها، غريبة جدًّا مشاعر تلك السيدات...

نظرت في ساعة يدي، كانت تشير إلى السابعة، عندما وصل صديقي أحمد، رحبت به ودعوته إلى فنجان قهوة، ولكنه كان متعجلًا كعادته، لقد تأخرنا على موعدنا بالفعل، لن أنسَ لك أبدًا هذا المعروف..

ابتسمتُ في حياء مردِّدًا تلك الكلمات التي تُقال عند المديح، والحق يُقال إن هذا المشوار وهذا الطلب كان ثقيلًا على قلبي بالفعل، ولولا معزة أحمد بالفعل زميلي وصديقي في كلية الطب ما طاوعته أبدًا، أمسكت بيده وجذبته للمنضدة؛ اجلس دقائق أريد منك بعض المعلومات عن الموضوع، أنت تعلم جيدًا يا أحمد أني توقفت عن هذا الشأن منذ زمن، ولقد وافقتك فقط لمعزتك وشفقة

على هذا الطفل، ومجيئي معك اليوم ليس بصفتي معالج روحاني، وتلك الأشياء، ولكن بصفتي الحالية كطبيب نفسي.

نادرًا ما تجتمع هاتان الصفتان في إنسان يا عزيزي، لا تنكر أنك تخصصت بالطب النفسي خصيصًا؛ لتكون أقرب لهذا المجال؟

خطأ، يا صديقي، لقد درست الطب، لأني كنت متفوقًا مثلك، وأهلي أرادوني أن أكون طبيبًا، أما تخصص الطب النفسي؛ فلأني كنت أريد أن أبرهن لنفسي أن كل تلك الأشياء هي خرافات، العلم يا عزيزي ينير ظلام الجهل، ويطهر العقول من رجس الأوهام.

وهل برهنت لنفسك؟

كان سؤاله حادًا مؤلمًا؛ أجبرني على التوقف للحظات، كانت كافية ليبتسم متشفيًّا؛ أرأيت.

ولكني ما لبثت أن أجبته: بالفعل أدركت أن كل هذا محض خرافات، العقل الباطن يا عزيزي يستطيع أن يحضرك إلى النهر، ثم يعيدك ظمآن، ما أكثرألاعيبه، فتلافيفه البيضاء والرمادية لا يعلم حقيقتها إلا من خلقها وحده، مهما علمنا، ستظل هناك الآلاف بل والملايين من الحقائق العلمية والخاصة بالمخ البشري وقدراته مجهولة بالنسبة لنا، وطالما يغلفها المجهول تندرج تحت بند

الخرافة والجهل، حتى يهذبها العلم باكتشافاته؛ فتصبح كل الأمور منطقية، والآن أعد على مسامعي بهدوء ما قصصته بشأن ذلك الطفل.

تململ في جلسته، ثم أشار إلى النادل بالقهوة، انتظر دقيقتين حتى حضرت قهوته، أخرج سيجارة رفيعة وأشعلها بهدوء، ثم ارتشف رشفة طويلة من فنجان القهوة، ورفع نظره تجاهي، وقال: أدهم طفل جميل، والده صديق عزيز لدي منذ أيام الطفولة، كان طفلًا طبيعيًّا تمامًا، وعندما أتم الثامنة بدأ يرى أشياء خوارقية لا تمت للواقع بصلة، مثل: أشباح، أصدقاء افتراضيين غير متواجدين بالفعل، أعتقد أنك من الأفضل أن تسمع من أبويه، المشكلة أن الطفل كان طبيعيًّا مائة بالمائة، وعندما رأيته آخر مرة لم أتعرف عليه، لقد خسر الكثير من الوزن صار وجهه باهتًا كالمصابين بفقر الدم، عيناه غائرتان، وجروحًا كثيرة تملأ جسده، ثم؟؟

ثم ماذا؟

ثم ماذا قال الأطباء؟

تنحنح أحمد قائلًا: الأطباء احتاروا في التشخيص، لا يوجد تشخيص واحد، المشكلة الحقيقية أن ذهن الولد لم يعد حاضرًا مثل سابق، يتحدث بأكثر من لسان، وبأصوات مختلفة. الطفل ملبوس يا صديقي.

ابتسمت ابتسامة عريضة، وتنحنحت ثم أردفت: كل ما ذكرته يُعد مرضًا نفسيًّا بعيدًا كل البعد عن أمور اللبس والأشباح تلك.

انظر من يتكلم!

يا صديقي لقد أدركت بعد فحص وتمحيص طويل أن هذا الأمر وهم فاعتزلته، ولأبرهن لك، سأسألك سؤالًا أخيرًا، ثم نقوم من فورنا؛ لنذهب إلى منزلهم.

وضع أحمد فنجان القهوة الذي كان يمسك به وانتبه، عندما سألته: هل علاقة الأب والأم يا تُرى على ما يرام؟

وضع أحمد سيجارته في المنفضة أمامه، وهو يسعل بشدة وقد اضطربت نظراته، تأخر في الرد كثيرًا، فعاجلته؛ من الواضح أن ثمة مشكلة، نظر مُطولًا إلى الأرض، ثم أدار نظره جهة المارة بالشارع وقد أخذوا يركضون، بينما هدأت زخات المطر بعض الشيء، غمغم وهو يشرد بعيدًا، متحاشيًا النظر في عيني بعدما استطعت بسهولة أن أوقع به بالفعل؛ بالفعل والداه منفصلان، حتى أني قد بذلت مجهودًا حتى أُقنع والده أن يأتي في الموعد، هو يكره لقاء زوجته السابقة، ولكن ما شأن هذا بذاك.

أشرت له بسبابتي ضاحكًا؛ اعترف أنك سقطت. واعترف أني طبيب نفسي محنك.

ابتسم رغمًا عنه، ارتشف بقايا قهوته، بينما لملمت

أنا أشيائي المبعثرة فوق المنضدة، نقدت النادل حسابه، وانطلقنا إلى منزل الطفل.

***

تأملت المنزل من الخارج، فيلا من طابقين، في أحد الأحياء الجديدة الهادئة بالقاهرة، حديقة صغيرة أمام المنزل لم يتم الاعتناء بها منذ زمن يظهر ذلك جليًا في نمو بعض الحشائش والأعشاب، بينما تجد الكثير من الزهور الذابلة، كان هناك شجرة كبيرة وارفة تقترب كثيرًا بأفرعها الشائكة من النوافذ تكاد تفترسها، المنزل بأكمله تم طلاؤه باللون الأبيض، لاشك أن هؤلاء الناس أثرياء بحق.

تقدمني أحمد، دق جرس الباب؛ لتفتح لنا سيدة بيضاء طويلة في منتصف الثلاثينيات من عمرها، شعرها ليل حالك معقوف خلف رأسها، وجهها نحيل نسبيًّا مقارنة بجسدها الممتلئ، عينان بنيتان، وخدود شديدة الحمرة، كانت ترتدي زيًّا رياضيًّا بسيطًا، رحبت بنا، ما إن رأت أحمد، ودعتنا للداخل، دخلنا غرفة استقبال قابلنا على بابها زوجها، ليرحب بنا بدوره، لاحظت السلام بين أحمد وصديقه والد الطفل كان حارًا؛ مما يدل على أنهما لم يلتقيا منذ زمن، غالبًا كانت معظم محادثاتهم تليفونيًا، أجلسونا على أريكة أمريكية الطراز مريحة. كان الرجل أصلع الرأس بالكامل، حليق الوجه والشارب، أخضر العينين، أسمر البشرة، يرتدي بدلة كلاسيكية، ورباط عنق أزرق. أضفت على مظهره

الكثير من الوقار والثراء، من الواضح أنه رجل أعمال، وإن كان عمره لا يزيد بحال عن منتصف الأربعينات.

قام أحمد صديقي بالتعارف بيننا، تأملت في أثاث الغرفة غير المتناسق كليًّا، كان هناك منضدة بجواري رأيت عليها بروازًا مدهبًا، به صورة صبي في الخامسة من العمر، وبجانبه برواز آخر به صورة لثلاثتهم؛ الأب والأم والأبن، الصورة التقطت غالبًا فوق مركب سياحي ربما أو أحد المنتجعات، كانت نظرة الأم لزوجها بالصورة توحي بالكثير من الوله، ذهبت هي لتحضر لنا شيئًا نشربه رغم تكرار شكري لها، وعندما عادت، كنت أمسك بالبرواز الصغير الذي به صورة الصبي، أشرت إليه قائلًا: بالطبع هذا آدهم. أومأت المرأة: نعم، يا دكتور هذا هو ولدي قبل أن يصيبه ما أصابه، بالفعل كانت الصورة مليئة بالفرحة والحيوية، طفل جميل يبتسم بعيون خضراء كعيون أبيه، بينما اكتسب بشرة والدته البيضاء ذات الخدود الحمراء، شعر أسود ناعم، كانت الصورة باختصار تشير إلى المعنى المجرد للسعادة.

وضعت البرواز الصغير مكانه، وابتدرت الحوار، وأنا أتجرع بعض الرشفات من الشاي الدافئ الذي أحضرته في وقته؛ دعونا لا نضيع الوقت، ولتخبروني بما يحدث هنا بالضبط، ما الذي تواجهونه مع أدهم؟

تنحنح الرجل، بينما تحدثت الأم: نحن سعداء جدًّا بتلبيتك لدعوتنا، د. أحمد، صديق زوجي منذ الطفولة أخبرنا أنه إذا

كان من سبيل لعلاج طفلنا فسيكون على يدك.

ابتسمتُ مطمئنًا، وأومأت برأسي؛ لتكمل هي: أدهم كان دائمًا بصحة جيدة يُحسد عليها طوال أعوام عمره الثمانية، ومنذ ستة أشهر فقط تغير كل شيء.

في البداية كانت هناك بعض الأشياء، مشاجرات مع زملائه وأصدقائه، المدرسين بالمدرسة، ثم صار منطويًا بشدة لا يخرج من المنزل، بل لا يخرج حتى من غرفته، يقبع بها طوال اليوم، صار يرفض الذهاب للمدرسة، توقعت في البداية أن الأمر لا يعدو بعض المشاكل النفسية بسبب انفصالي أنا ويوسف، قالتها، وهي تنظر بطرف عينيها نظرة خفية تجاه زوجها أو طليقها، ولكني لاحظتها بشدة، توقفت السيدة لحظة، وبدأت بعض الدموع تتجمع في مقلتيها، رفعت عينيها اللامعتين وأردفت، ثم... ثم بدأ يرى أشياء، وضعت كوب الشاي الدافئ من يدي، وهاجمتها مستفسرًا: أشياء مثل ماذا؟

أصدقاء تخيليين، صديق حميم له منذ الطفولة، ولكنه تُوفي في حادثة. أخذت تجفف بعض الدموع العصية التي انحدرت على وجنتيها رغمًا عنها، واستطردت: ثم بدأ يصيبه الهزال الشديد، يعزف عن الطعام تمامًا، يتحدث بصوت غريب، أحبال صوتية مختلفة تمامًا عن صوته، كدمات متعددة تظهر بجسده.

أمسكتُ بكوب الشاي ثانية بعدما شعرت ببعض البرد، وانتابتني تلك القشعريرة المزعجة التي تراودني من آن لآخر كلما واجهت أمرًا شاقًّا، وسألتها موجهًا نظري للأب؛ ولماذا لم تطلبوا مساعدة الأطباء بخصوص هذا الشأن؟

همَّ الرجل بالإجابة، ولكنها قاطعته، فأشار لها بالحديث وصمت عاقدًا ساعديه على صدره، من قال هذا؟!

لقد ذهبنا إلى مئات الأطباء، كلما يخبرنا أحد عن طبيب جيد ذهبنا إليه، أطباء أطفال، وأطباء أمراض نفسية.. وفي النهاية لجأنا إلى شيوخ بهذا المجال...

قاطعتها أنا تلك المرة؛ هل أنت امرأة مؤمنة سيدة لبنى؟

حركت رأسها في استنكار؛ لا أفهم ماذا تعني؟

أقصد، هل تؤمنين بالله، تؤدين صلواتك؟

لا أدري ما علاقة هذا بما أصاب ولدي الوحيد، ولكن الإجابة هي نعم، كلما ازدادت حالة أدهم سوءًا، لا أجد أمامي غير الإيمان فهو الشيء الوحيد الذي يثبتني.

كانت تمسك بفنجان الشاي فاضطربت يداها وبدأت ترتعش، وضعت الفنجان على المنضدة مكملة: أعتقد أن هناك شيئًا ما يسكن جسد فتاي الصغير، ويفعل كل ما في وسعه؛ لكي يدمره.

ما نوع هذا الشيء؟

حاولت أن تمسك بالفنجان ثانية، ولكن يديها ارتجفت بعنف، بعض الشاي الدافئ تساقط على ملابسها، فأسرع زوجها بإمساك الفنجان من يدها، ساعدها على وضعه على المنضدة، بينما أجهشت هي بالبكاء، ومن بين دموعها قالت: أعتقد أن هناك شيئًا شريرًا جدًّا داخل أدهم... شيء...، وصمتت لحظة، ثم أكملت: "شيء غير نظيف" لا أعرف كيف أصفه غير ذلك.

أخبرني يا دكتور إنك تستطيع أن تخلص ولدي منه، وترسله إلى الجحيم، إلى حيث ينتمي...، لم تستطع السيدة أن تكمل حوارها من شدة البكاء، فابتسمتُ مطمئنًا، بينما ربت زوجها على يديها بحنان.

انتظرتُ دقيقة أو ربما دقيقتين، ثم تساءلت: سيدتي أنا لا أريد أن أضغط عليك أكثر، ولكن اسمحي لي، ما هو دليلك أن ولدك ليس مجرد مريض نفسي، وأنه ملبوس أو مُستحوَذ عليه من قبل شيء شرير كما تدعين.

جففت دموعها بيديها، عادت بظهرها إلى مسند الأريكة، وهاجمتني قائلة: كل ما أخبرتك به وتريد دليلًا على أنه ليس مجرد مريض نفسي. لا بُدَّ أن تراه بنفسك لتوقن.

وأين هو أدهم الآن؟: نظرت السيدة لأعلى، وأشارت بعينيها: أنه بغرفته بالأعلى.

استأذنتهم بالصعود لأعلى لمناظرة الطفل، تقدمتني

السيدة؛ لتريني الطريق، بينما أتى الجميع ورائي، وإن طلبت منهم عدم التدخل في الحديث والصمت التام أثناء الكشف، صعدتُ السلم الخشبي الداخلي للفيلا، شيء بديع حقًّا يوحي بالفخامة، ولكن هناك شيئًا ما من عدم التنسيق أو التخبط في اختيار الألوان لا تستطيع عين خبيرة أن تغفله.

قادتنا السيدة لغرفة الصبي بالدور العلوي، فتحت الباب ودخلت وأنا وراءها، غرفة طفل جميلة، تم دهانها بألوان السماء، بينما ازدان سقف الحجرة بالفعل ببعض النجوم والكواكب، لا ريب أنها تضيء في ظلام الليل بالفعل، بعض اللوحات الطفولية تم تعليقها على الحائط، مكتب صغير أنيق بنفس لون الغرفة اصطفت فوقه بعض الألعاب، تأملتها جيدًا، فوجدت الغبار يكسوها، سرير الطفل في مواجهة الباب يعلوه رسومات طفولية قديمة لبعض الحيوانات، أسد، تمساح، هناك إبريق ماء، وبجواره كوب زجاجي وضع بجانب سريره.

ذهبت مباشرة جهة السرير بعدما حذرتهم ثانية، كان الطفل غافيًا عندما صعدنا، ولكنه استفاق على أصواتنا، طفل ككل الأطفال، يرقد في سريره، عدا بعد الكدمات الجلية والواضحة على وجهه، ويديه وساعديه، أراهن أن هناك المزيد بجسده من الداخل، عينان غائرتان لم ترَ نومًا منتظمًا منذ قرون، فم وشفاه جافة متشققة، بشرة شاحبة كالأموات، كل ذلك لا ينفي مرض فقر الدم، أو لعله، داء "بورفيريا"

والذي بنى عليه الخيال الخصب لبرام ستوكر رائعته الخالدة عبر الأزمنة، "دراكولا".

وهو داء وراثي نادر، يجعل دم مريضه يتخثر باستمرار؛ مما يعني حاجة شديدة للدماء، بالطبع عن طريق الحقن وليس العض، بالإضافة إلى خوف شديد من الشمس، فالضوء يحول جلد المريض إلى حروق وتقرحات، تمامًا كما شطحت بنا الأسطورة، بالإضافة إلى أسنان نخرة أو مدببة بعضها مفقود، دامي اللثة وجسد مليء بالكدمات، لو كان سير ستوكر معنا لسعد بنا كثيرًا الليلة، اقتربت من الطفل محييًّا، مددتُ كفي أمامه مصافحًا، فحياني بالمثل، كانت قبضته وهنه، أيضًا كان نبضه ضعيف، عرفته والدته بي، قائلة: لقد أتى الطبيب لرؤيتك ومساعدتك يا عزيزي.

في حين ابتسمتُ أنا موجهًا حديثي له: لستُ طبيبًا بالمعنى المفهوم، ولكني صديق عمك أحمد، وصديق لوالدك، وأتيت للاطمئنان عليك، ابتسم الطفل في وهن لمرأى أحمد وأبيه، أشرت إلى الرسومات أعلى سريره، قائلًا: واضح جدًّا أنك تحب الحيوانات، ابتسم، وأومأ برأسه مؤمنًا.

والدتك أخبرتني بقصة، وهي تعتقد أنني ربما أستطيع مساعدتك.

Screenshot saved

أجاب من بين شفتيه المتشققة، وقد تقلصت أيضًا: لا

يمكنك مساعدتي، لا أحد يستطيع مساعدتي.

- حسنًا، أنا لا أعلم بعد ماذا أصابك، ولكن بعضهم يقول أني طبيب ماهر.

- لقد أخبرتني والدتك عن صديقك الخيالي.

أومأ برأسه موافقًا في قلق.

- هلَّا أخبرتني ما اسمه؟

- نادر.

- هل يمكنني رؤيته؟

- لا أحد يستطيع أن يراه.

- لا أحد باستثنائك؟! أومأ برأسه ثانية، بدأت أطرافه ترتجف.

- بادرته ثانية؛ كيف يبدو نادر صديقك؟

كان يتشبث بالشرشف بقوة، ويحرك يده الأخري بعصبية على شعره الأسود.

حاولت تهدئته قائلًا: بالمناسبة يبدو أنك فنان يا صديقي، يظهر ذلك من لوحاتك، ولكن ألا يمكنك دعوة صديقك هذا الآن؟ ربما للترحيب بنا.

- إنه يختبئ.

- أين؟

- خلف لساني، وعندما يغضب، تخرج أسنانه.

أخرجت من جيب معطفي ذلك الكشاف القلمي الرفيع، والذي أحتفظ به دائمًا، أحيانًا كثيرة يسعفني في تحديد الذهان الفعلي من الإدعاء، بانكماش بسيط لبؤبؤ العينين عند تعرضهما للضوء، ولي فيه مآرب أخرى.

اقتربت بكشافي الصغير من فمه وأشعلته، صحيح دعنا نلقي نظرة على هذا الفم والحلق، أضأت الكشاف واقتربت أكثر من فمه، افتح أكثر يا صديقي، أخذ جسده يرتجف، تحجرت عيناه، بينما اقتربت أنا برأسي أكثر متفحصًا، وبالطبع لم أجد أي شيء، أطفأت الكشاف وأعدته إلى جيب معطفي، قائلًا: يبدو أن صديقك هذا لن يحضر اليوم، قلتها مداعبًا؛ ربما في يوم آخر.

لامست بأناملي جبهته، متفحصًا تلك الكدمات المتفرقة، ثم قمت وهممت بالنزول، عندما أصابت الطفل فجأة نوبة من الارتجاف، أخذت أسنانه تصطك ببعضها بصوت مسموع، وعندما حاولت مساعدته، جلس الطفل وبدأ يتقئ، في نفس الوقت الذي سمعنا فيه صرخة مدوية من السيدة والدته، التفتنا جهتها، فوجدتها تمسك ببطنها، وقد تجمعت بقعة دموية أسفل ملابسها، تركنا الطفل بعدما هدأ، وفحصنا الأم؛ فوجدت جرحًا قطعيًّا طوله أربع إلى

خمسة سنتيمترات كاملة، اجتهد زميلي أحمد في الرعاية بجرح السيدة الذي تولد من العدم، بينما هبطنا جميعا للدور الأرضي، في محاولة لتهدئة الوضع الذي احتدم بقوة.

وقف الأب مذهولًا وسط الغرفة؛ ما هذا؟! أرأيت يا دكتور، لقد عضها هذا الكائن الذي يسكن أدهم بأسنانه، حاولتُ تهدئته، كيف يا سيدي قام بعضها، وهي تبعد عن السرير خمس خطوات كاملة، ولماذا لم يقم بعضي أنا؟ وقد كنت أنا الأقرب إليه.

ألا ترى يا طبيب أننا لا نتعامل مع أمر طبيعي يحده العقل والمنطق؟! بل نتعامل مع كائن سفلي، يستطيع أن يأتي أشياء لا قبل لعقلنا بتوقعها، لم أجب، واكتفيتُ بهز رأسي.

دقائق وجاء أحمد، ومعه السيدة، كانت تمسك ببطنها محل الجرح وتتأوه بشدة، اطمأننا من أحمد على الجرح، وأفاد بأنه لا حاجة للقطب، فالجرح بحمد الله سطحي، سألتها ألم تحتكي بأي شيء حاد يا مدام لبنى؟

انتفضت من السؤال، مستنكرة، رفعت حاجبيها لأعلى وأجابتني، وهل رأيت حضرتك أي شيء حاد بالغرفة، بالتأكيد هو الكائن الذي يسكن ولدي ويحيل حياته لجحيم، تخيل أن هذا الكائن المؤذي والذي تسبب بجرحي يسكن بجوف ولدي، وأخذت تنشج وتبكي من جديد.

نظرت للأب الذي توجه ناحيتها، وقام بالربت على شعرها

في حنان، بينما كان أحمد ساهمًا ينظر للسجادة الصوفية بأرضية الغرفة.

احترمت بكاءها؛ حتى انتهت، ولكن الأب عاجلني هذه المرة: هل تستطيع مساعدتنا يا دكتور؟

بالتأكيد، أدهم حتى الآن طفل مصاب باضطراب عصبي شديد، وبحاجة لعلاج مكثف.. اندهش الرجل من كلامي، بينما مسحت السيدة دموعها، ونظرت إليّ متعجبة: مريض نفسي!

ألم ترى بعينك ما حدث؟! لقد تقيأ على ملابسكم، وقام بجرحي، عن بعد.

ابتسمتُ بهدوء، يا سيدتي الإصابة باللبس الشيطاني لها شروط ودلائل دامغة، لا بُدَّ من توفر علامة قوية؛ حتى نتأكد من هذا التشخيص، أما في حالتنا هذه فأنا ما زلت عند رأيي أن الطفل مصاب باضطراب نفسي حاد..

هاجمتني ثانية؛ وماذا عن ذلك الجرح وأشارت بيدها إلى بطنها وهي تتأوه؛ هل جرحني الهواء؟

- حقيقة أنا لا أعلم السبب، ولكن هذا لا يؤكد أو ينفي أي شيء بخصوص أدهم، قد يكون الممسوس أحدنا نحن، وليس الطفل.

وماذا عن تلك الكلمات التي يرددها، صديقه الخرافي،

تلك الأصوات العجيبة التي يتحدث بها، الكدمات والجروح بجسده، كلها مرض نفسي، وإذا كانت مرضًا نفسيًا، لماذا فشل الأطباء في علاجه؟

سيدتي نحن في فريق واحد، أنا لست ضدك بالمرة، تأكدي أن همي مثلك تمامًا هو شفاء أدهم، ولكن كل ما ذكرت لا يستبعد بحال المرض النفسي، اللهم إلا التحدث بلسان مختلف، وهذا ما لم أره منه بنفسي.

الفصل الثالث

الخوف

1977

أمسكت عفاف بذراعي آدم في اللحظة الأخيرة، تهشمت الألواح التي تحملت الكثير طيلة الليل، لا شك أن ثلاثين كيلوجرامًا أو يزيد كان حملًا ثقيلًا على تلك الألواح المهترئة، وفجأة تمسك الطفل بعفاف بقوة، بعدما كان غير واعٍ بالمرة، عادت مرة أخرى غريزة البقاء للعمل بعد توقفها لليلة كاملة، تشبث بكل قوة بذراعيها، بينما استمرت قطع الأخشاب المهشمة تحت قدميه في السقوط بالبئر، كفم حوت عملاق، أخذت تبتلعها في شغف، لم يستطع أحد منهما النظر لأسفل، جعلت تحاول رفعه، ولكن يبدو أن إحدى قدميه كانت قد علقت بين أحد الألواح المهشمة، جاهدت هي، بينما ازداد هو تشبثًا بذراعيها.

لحظات هي كعمر الدهر، والفك العملاق للجُب بالأسفل فاغرًا فيه في انتظار المزيد، جوع أبدي لمئات السنين ربما، زلقت قدمه ثانية، ولكنها التقطته بسرعة، الآن أصبحت قدمه حرة، رفعته ببطء، ثم خرَّا سويًّا على الأرض، احتضنها كما لم يحتضن أحدا طيلة حياته، بينما كانت أنفاسها تسابق بعضها بعضًا، ضربات قلبه تكاد تعلو لتبلغ عنان السماء، نظرت لأعلى جهة الدار، فوجدت الأطفال وقد اصطفوا

أمام النوافذ الزجاجية بالعنبر يتابعون تلك الملحمة البطولية التي قامت بها منذ ثوان، بعض الطيور الكسولة ما زالت تفيق من نومها فتحوم حولهم مغردة احتفالا بالنصر الكبير، أحدهم اقترب كثيرًا حتى أنه وقف على حافة البئر متأملًا لما يحدث، ولسان حاله يقول: فليخبرني أحدكم بما حدث، لقد جئت متأخرًا، ظلًا دقائق على وضعهما، وأنفاسهما ما زالت تلهث، أم تحتضن وليدها، أو ربما عاشقان ذابا في أحضان الهوى، ثم رفعت رأسه من صدرها، نظرت له نظرة تأنيب، سألته من بين أنفاسها اللاهثة: لماذا؟ لماذا فعلت هذا يا آدم؟

لم يجد الطفل شيئًا يجيب به إلا حيرة بينة، لو كان يعلم إجابة شافية لقالها، نهضت وأمسكت بيده بقوة، وسارا عائدين إلى الدار، صعدت به لأعلى، وفي طريقها اطمأنت أن الأطفال بجميع العنابر ما زالت تغط بالنوم، وقفت بوسط العنبر، رفعت إصبعها السبابة محذرة، إن حدث مثل هذا مرة أخرى؛ فأنتم تعلمون العقاب، أنا لن أخبر السيدة دولت بما حدث؛ حتى لا تقتل آدم أو تقتلكم جميعًا، فليبقي هذا سرنا، ولكن حذارِ أن يحدث منكم أحدا بما رأى اليوم، وإلا كانت نهايتكم جميعًا.

أما أنت يا آدم، فلي معك جلسة طويلة، وسوف أعاقبك أنا بمعرفتي، والآن استعدوا للاستيقاظ جميعكم، فقد اقترب الموعد، تركتهم وخرجت، وهي ما زالت تلهث،

صحيح لقد هددتهم وأخافتهم من إذاعة ما حدث، ولكنهم ما زالوا أطفالًا لا يملكون ألسنتهم، ومازال الخطر المتمثل في معرفة دولت بالواقعة قائمًا، لكنها استندت إلى سلاح أصيل لطالما نجح معها سابقًا، سلاح الوقت، كانت تعلم جيدًا أنه مع مرور الوقت، فالزمن دائمًا ما يعد بالنسيان والنسيان بضرورة الحال رفيق لا يفترق عن الغفران.

كلما امتلكت ذاكرة أضعف، وكلما مر بك زمن أطول أصبحت قادرًا أكثر على المغفرة، وكيف ينزعج المرء مما لا يتذكره؟

تركتهم وتوجهت لمكتب الإشراف في انتظار حضور الجميع.

***

صباح جديد مشرق، علت الضوضاء وتعالت الأصوات متشابكة، يوم جديد يمحو بقوة الآن ورعونتها كل آثار وخطايا البارحة، كل شيء عاد لطبيعته، الصخب العالي، التلاميذ المزعجون، روائح طعام الإفطار، المشاكسات اليومية بين الأطفال، الابتسامات المتكلفة المتبادلة، كانت تعلم أن نوبتجيتها الليلية بالأمس تكفل لها الراحة التامة اليوم، ولكنها لدهشة الجميع ولسذاجتها الشديدة لم تستطع الرحيل، خوفًا من اكتشاف الأمر، أخذت تعبث طوال اليوم تفعل لا شيء، في محاولة للمراقبة علها تستطيع أن ترأب

صدعًا، أو تأد مصيبة في مهدها، ولكن فعلتها تلك لم تمر على عقلية متشككة مثل دولت مر الكرام، انتظرت دولت وراقبت من بعيد، وعند قرب نهاية اليوم استدعتها متسائلة في ريبة لم تغفلها: لماذا لم تستفيدي من راحتك اليوم يا فاتن؟ ألم تسهري طوال ليلة الأمس؟

اضطربت في رعب، خالت أنها علمت كل شيء، هؤلاء الشياطين الصغار، لا ريب أنهم لم يستطيعوا الصمت، تنتحنحت، عدلت من وضع عويناتها ومسحت يديها على شعرها، وأجابت: زوجي لديه سفر اليوم، وفضلت ألا أمكث وحدي بالمنزل.

نظرت لها دولت متفحصة، والشك يقطع أميالًا داخل صدرها العامر، ولكنك لم تستريحي حتى الآن.

- هانت، كلها ساعتان، وينتهي الدوام.

أومأت لها دولت، وأشارت لها بالانصراف، ثم أرسلت لعصفورة، نعم، اسمها عصفورة، وليست صفتها فقط، تلك الموظفة أو الموظف الذي لا يستغني عنه أي مدير محنك، تراه يتجول دائمًا كالغزال الشارد وسط القطيع، الكل يعلم حقيقته، والمدير يعلم حقيقته، بل والأدهى أنه يعلم أنهم يعلمون، ولكنه يؤدي عمله بمنتهى الاحترافية والنجاح، بالرغم من كل اللافتات المعلقة بعضها على صدره والأخرى على ظهره، وبالرغم من تخوف الجميع منه، ومن

نقله للأخبار، ولكن يظل الجميع يقع دائمًا في الفخ.

وعصفورة الدار، كانت إحدى العاملات بالدار لطالما استخدمتها دولت لمتابعة كل الشئون، وأحيانًا لبثِّ بعض الفتنة اللازمة. قربتها منها مضطرة، عاملتها ببعض الود وميزتها عن أقرانها، وكان هذا يكفي عصفورة جدًّا، بل ويفيض. بالطبع كانت هي من أعلمتها بالاسم الذي أطلقوه عليها المشرفون والأطفال على حد السواء، في البداية انزعجت وقررت الهجوم، ولكن سرعان ما استكانت عضلاتها وابتسمت فقد راق لها الاسم؛ الوحش، ولما لا، أليس لكل غابة وحشًا يحكمها، والدار أبشع من كل صنوف الغابات. بالعكس اسم كهذا يبعث في قلوبهم الهيبة والرعب، كم هم سذج هؤلاء!

حضرت عصفورة؛ لتقف في خشوع جمّ بين يد الوحش. تركت ما كانت تكتبه وخلعت عويناتها، ونظرت لها بعين فاحصة، ثم حركت شفتيها بكلمة واحدة "عفاف" كانت العلاقة بينهما قد وصلت إلى حد بعيد، حد الفهم من مجرد الإشارة، حركة الإصبع وربما حركة العين، وما إن سمعت عصفورة الاسم؛ حتى أدركت برشاقة الطيور كل المطلوب، التفتت لتتحرى، ولكن الوحش استوقفتها، قائلة: هناك شي حدث بالأمس.

أومأت برأسها ثانية، وطارت إلى العنابر والحجرات.

لم تبذل عصفورة الكثير من الجهد لمعرفة ما حدث بالضبط كما توقعت عفاف الساذجة، فما إن وصلت إلى الدور الثاني؛ حتى سمعت جلبة شديدة وصراخ، اقتربت؛ لتجد آدم ملقى على الأرض بجوار سريره يرتجف وينتفض جسده انتفاضات عجيبة، بينما تجمع الكثير من رفاقه حوله يحدقون به من بعيد خائفين من الاقتراب، كانت مشرفة الدور قائمة على رأسه تتفحصه، بينما اندست عصفورة بين الأطفال متسائلة عما حدث ليلة أمس، وكأن للأطفال كانوا في انتظار السؤال، فانطلق الجميع يحكي ويشرح ما حدث، وما رأوه من النوافذ العريضة في الصباح.

لم تنتظر عصفورة لتسمع أكثر، فالأمر لا يحتمل الانتظار، والمعلومة متاحة على كل الأشهاد، ولو علمتها دولت بنفسها حينئذ لن يكون لوجودها أية نفع، عليها بسرعة إخبارها قبل أن تدركها بنفسها، ولتكمل هي استنتاجها حسب هواها.

هبطت درجات السلم كالعصفور، اقتحمت مكتب الوحش وقد احمر وجهها من المجهود، رأتها دولت، فصرفت بسرعة المشرفة التي كانت بجوارها، وأشارت إليها بالجلوس، قائلة: كلي آذان صاغية.

أخبرتها عصفورة في ثوان بما علمت عن حادثة أمس، وأخبرتها بحالة الطفل بالأعلى، لم تنتظر دولت حتى تكمل عصفورتها روايتها، بل انطلقت كالسهم إلى أعلى، كأسد

جريح، أنهكته كتيبة من الضباع، نبي أنكره أهله وأراد أن يلقنهم درسًا لن ينسوه، صعدت الدرجات بسرعة رهيبة لا تتوائم أبدًا مع تكوينها الجسماني، ودخلت عنبر آدم، تلاحقها عصفورة لاهثة، ما إن رآها الجمع حتى أفسحوا لها الطريق.

اقتربت من الطفل الذي هدأت حركته كثيرًا، ولكنه بدأ الدخول في نوبات قئ متقطعة بعضها أصاب الأرض، بل وملابس المشرفة بجواره، تفحصت الطفل بعيني خبير، ثم هبطت السلم قامت بإجراء بعض الاتصالات مع مدير المستشفى الأميري، والذي بعث بطبيب خلال ساعة على الأكثر، فحص الطبيب آدم، وشخص حالته على أنها نوبة برد شديدة، أعطاه بعض الأدوية، ونصح بالراحة، ورحل. هدأت حالة آدم، ولم تهدأ حالة الوحش.

بالطبع علمت عفاف بما حدث، وعندما كانت تهم بالرحيل، جاء لها القدر في هيئة عصفورة؛ فكان عليها المثول بين يدي الوحش.

طأطأت رأسها، واستدارت، ودت لو تركتها دولت تحيا ليوم آخر ربما لو لم تكن بحاجة لهذا العمل، أو أن هذا الطفل الأبله ما نزل بالدار من الأساس، ولكن ليس كل ما ينشده المرء يتحقق، سارت وراء عصفورة مقطوعة الأنفاس منكسة الرأس مهيضة الجناح، أسيرة ترفل في سلاسل من الخيبة وعار الهزيمة، سبية ستستبيح دولت كرامتها، ولربما

حياتها، فكرت في الإنكار، وفي خلق قصة فرعية جديدة توئد الحقيقة، ستقول أنها باتت ليلتها في الدار بالفعل، وعندما جاء الصباح، كانت تطمئن على العنابر، عندما سرق ذلك الطفل المفتاح وخرج للخارج وفعل فعلته، ستخبرها أنها لم تستطع أن تعلمها بالحقيقة خوفًا من بطشها، ولأن كل شيء مر بسلام.

خططت للكثير وبنت قصور من التعليلات والأسباب، وعندما وصلت المكتب، ووقفت بين براثن الوحش، وسألتها أول سؤال، فاعترفت بكل شيء، الدموع كانت تنزف من عينيها، جسدها يرتجف، انتظرت دولت حتى انتهت من روايتها، وقامت من كرسيها، بينما عادت هي بظهرها للخلف جزعًا.. اقتربت منها دولت؛ حتى صارت تلفح وجهها بأنفاسها، مالت محدقة بعينيها: احكمي أنتِ على نفسك..

- أنا.. أنا لم أفعل شيئًا، تلك أول مرة، ولقد... ولقد أنقذت الصبي -مثلك من يتخلى عن واجبه كمثل الجندي الخائن الذي لا يحمي حصنه، فالنار أولى به، أمسكتها من شعرها، وجذبت وجهها تجاهها، أما أنا فلن أحرقك، ولن أقوم بتسريحك من العمل، ولكن سأجزل لك العطاء، شهر جزاء لفعلتك، ونوبتجيات سهر يومية؛ حتى نهاية الشهر، وسأراقبك بنفسي، انصرفي من أمامي الآن قبل أن أغير رأيي. أخذت تركض، والدموع تتساقط من عينيها، لا تدري

أدموع فرح أم حزن؟ هي لا تصدق أنها نجت، بل لم تترك العمل حتى، بالرغم من قسوة العقاب وصعوبته، إلا أن بقاءها على رأس العمل يُعد انتصارًا.

وجاء المساء، وسكنت الحركة، وعاد كل الأطفال إلى عنابرهم، كل دلف إلى سريره عدا آدم الذي لم يفارق سريره طيلة اليوم؛ حتى أنهم جاءوه بالعشاء من المطبخ لسريره حسب توصيات الطبيب، كانت فاتن هي مشرفة الليلة، أطفأت الأنوار، ونزلت إلى مكتب الإشراف بالأسفل، أمسكت برواية قديمة، تهتك غلافها الخارجي من كثرة الاستخدام، بدأت تتصفحها، عندما تناهى إلى سمعها صوت تهشم زجاج، تركت روايتها على المنضدة أمامها، وصعدت لأعلى في سرعة.

صوت ارتطام شيء يأتي من الدور الثاني؛ العنبر الثالث، فتحت الباب بحرص، وما إن دلفت للداخل حتى صدم عينيها منظر آدم وهو يقف بجوار إحدى النوافذ الزجاجية الضخمة، ويضرب رأسه بقوة بالزجاج، ويعيد الكرة مرارًا، كانت الغرفة الكبيرة مظلمة، ولكنها تكاد تجزم أنها رأت شخصًا ما يقف خلفه يرتدي السواد ويدفع رأس الطفل للنافذة، وقفت مشدوهة دقيقة كاملة من هول الصدمة، ثم تداركت نفسها، فأضاءت أنوار العنبر، وجرت باتجاه الطفل، أمسكته وحاولت إعادته برفق إلى سريره، ولدهشتها الكبيرة طاوعها الطفل بسلاسة، وكأنه عجينة طرية تشكلها

كيف تشاء، سألته برفق عما حدث، ولكن الطفل لم يجب، حاولت محادثته، ولكنه كان ينظر إليها بعيون خاوية كأنه لا يستمع أو لا يفهم لغتها، ينظر إلى حركة شفتيها، كطفل رضيع لم يعِ الكلمات بعد.

ثم بدأت شفتاه تتحركان، انفرجتا عن بعض الكلمات والجمل، ولكنها لم تحمل أية معنى بالنسبة لآذانها، ضيقت الفتاة ما بين عينيها واقتربت مستفسرة عما يقول، ولكنه أخذ يهذي وبصوت أعلى هذه المرة، كان من الواضح أنه يتحدث بجمل وكلمات كاملة، ولكنها لم ترد عليها في أية قواميس مسبقًا، ولكنها كانت أشبه بلغة متناسقة بالفعل من مخارج ألفاظها ونهايات حروفها، بل أن بعضها حمل سجعًا مميزًا كآيات الكتب السماوية.

ثم رحلت عينا آدم فجأة، لا، لم ينم أو تغفُ عيناه، بل ارتحل سواد عينيه تمامًا بالرغم من فتحه لعينيه على اتساعهما، وحل محله بياض شديد، مع ملتحمة حمراء بلون الدم، وبدأ جسده بالارتفاع، لم تصدق عينيها، وجعلت تفركهما بقوة، وهي ترجع بخطواتها بعيدًا عن السرير حتى التصقت بالحائط، في حين ارتفعت بعض الشهقات من عدد لا بأس به من الأطفال الذين استيقظوا على الضوء والصوت.

كان جسد الطفل يرتفع عن سريره بأيدٍ خفية، أكثر من متر كامل، وكأن الجاذبية الأرضية قد قررت أن تحصل على

أجازتها اليوم في تلك البقعة فقط وأعلى ذاك الفراش، لو أن سير إسحق نيوتن كان موجودًا معنا لحزن حزنًا شديدًا؛ للاستهانة بقوانينه التي لم يستطع أن يخرقها كائن من كان على وجه الأرض.

أخذت ترتجف، وهي تغطي فمها بيديها، وتردد في سرها بعض الآيات القرآنية التي تحفظها، بينما ظل آدم يردد كلماته بتلك اللغة ذات السجع المميز، لم تحتمل المشرفة أكثر من هذا، هذا سحر مبين، أو لعله عمل شيطاني لا شك فيه، فلأنسحب بهدوء، ولأخبر السيدة دولت على الفور، وماذا لو اتهمتك يا مسكينة بالجنون؟

فلتتهمني، ولتفعل ما تشاء، ولكن ما رأيته الليلة لن يبقى في صدري لحظة أخرى واحدة، انطلقت تهبط درجات السلم بسرعة وكأن وراءها شياطين الجحيم تطاردها، وصلت للدور السفلي، ركضت لحجرة الإشراف، أمسكت بسماعة التليفون وأخرجت ورقة من حقيبة يدها، ورقة احتفظ بها الجميع، ولكنهم لم يجرءوا مرة على استخدامها، ورقة خُط عليها بخط واضح أنيق؛ اسم السيدة مديرة الدار، دولت النمر.

رددت الأرقام المدونة بالورقة؛ حتى حفظتها ثم أدارت القرص، ثوان، ثم جاءها الصوت المميز للوحش، كان يغلفه الكثير من النوم، رباه لربما حضرت؛ لتقتلك نظير اتصالك بها في هذا الوقت المتأخر من الليل، اهتزت السماعة في

يدها، وارتجف صوتها، وهي تعيد تنظيم أنفاسها، وتحاول أن تبدو هادئة، سيدتي آسفة لاتصالي بك في هذا الوقت المتأخر، أنا فاتن المشرفة الليلية بالد....

قاطعتها دولت على الجهة الأخرى من الهاتف: بنفاذ صبر: ماذا حدث يا فاتن، أاشتعلت الدار؟؟؟

لا يا سيدتي، الطفل المريض بعنبر ثمانية؛ آدم.... لم تدرِ بماذا تكمل؟

ماذا به آدم.

لقد.. لقد... إنه ملبوس يا سيدتي، لقد ارتفع عن الفراش، بضع أمتار، وكأنه يطير بالهواء، ويتحدث بلغة غريبة، لا بُدَّ أن تحضري يا سيدتي؛ لتري بنفسك. أنا أكاد أموت من الخوف. أغلقت دولت السماعة بدون أي تعقيب، ارتدت ملابسها بسرعة البرق، ربع ساعة مرت بمنتهى الصعوبة على فاتن التي ظلت بالطابق السفلي، لم تجسر على الصعود ثانية، بينما هبط الكثير من الأطفال من عنبر آدم للأسفل خائفين. دخلت دولت الدار في حركة مسرحية أفسح لها الجميع الطريق وصعدت الدرج مباشرة لعنبر ثمانية.

كل شيء هادئ، آدم في سريره نائمًا، بعض الأطفال ما زالوا يغطون في نوم ثقيل، كل شيء بالداخل هادئ، كانت فاتن قد حضرت وراء مديرتها، التفتت لها دولت، وقد

قطبت ما بين حاجبيها، واستعدت للانقضاض، ولكنه كان يهذي بكلمات.. بترت كلماتها، وصاحت تستشهد بالأطفال الذين تجمعوا بالرواق خارج العنبر، ابتسمت دولت ابتسامة صفراء في ضيق ربما ارتفعت درجة حرارته؛ فأخذ يهذي، ولكن فاتن أصرت على براءتها، وأشارت بأيدٍ مرتجفة إلى زجاج النافذة بجانب سرير آدم، وقد تهشم زجاجها، وتناثرت شظاياه على الأرض.

اقتربت دولت من النافذة العريضة، وتحدثت متهكمة: ربما طائر ما أنهكه الطيران، وحظي وحظه السيء جعله يرتطم بزجاج النافذة في الليل، التفتت ونظرت للأطفال حولها مستنجدة، وقد جسر بعضهم الآن على دخول العنبر في وجود الوحش، ولكن قاطعهم جميعًا، صوت آدم، وهو يهذي ببعض الكلمات، بينما بدأ جسده في الارتجاف ثانية، لانت ملامح فاتن، متهم ظهر دليل براءته.

ولكن وجه دولت هو الذي تجهم، واقتربت كثيرًا من سرير الصبي الذي فتح عينيه دفعة واحدة، وبدأ يضغط على أسنانه، ثم اعتدل جالسًا بالسرير، وبدأ يتحدث بصوت رجولي مخيف، وبلغة غير مفهومة بالمرة، ميزت فيها دولت بعض الكلمات العبرانية والآرامية، والتي صادفتها بالإنجيل، فخفق قلبها أكثر.

حاولت أن تمسك بالصبي، ولكن يدها توقفت على بُعد زراع من جسده، شعرت بخوف شديد مبهم لم تشعر به من

قبل، أبعدت يدها يبدو أن المشرفة كانت صادقة بالفعل، واضح أن هناك أمرًا غريبًا يخص هذا الصبي بالفعل!

ولأول مرة تضطرب أفكار دولت، بل إنها شُلت تمامًا، لأول مرة في حياتها الدقيقة الرتيبة المنطقية المنظمة تجابه مثل هذا الأمر، لم تدرِ ماذا تفعل؟ خمس دقائق كاملة والصبي يتحدث حوارًا كاملًا بتلك اللغة وينظر لهم شزرًا، الرعب في عيون الأطفال، الكل ينصت لما يتفوه به من عجيبة، ثم فجأة صمت، وعاد لوضعية نومه وغط في ثبات عميق. نظرت دولت حولها، لأول مرة تهتز هيبتها في هذه الدار، من ذا الذي جسر على إخافتها، بالتأكيد في الأمر سر.

أول ما خطر على ذهنها هو اسم القس بولس، معلم الكهنوت بالبطريركية التابعة لها، كانت تعلم أنه مهووس بهذه الأشياء الغرائبية يؤمن تمام الإيمان، أن أعداء الرب متربصون بيننا، ينتظرون أي فرصة سانحة؛ ليغتصبوا أي حمل شارد، فيحتلوه، نعم، تلك الأفعال لا تفسرها الأمراض النفسية، هذا مس شيطاني لا لبس فيه.

أيقظت آدم من النوم فبدا طبيعيًّا للغاية، لا يعلم أي شيء عما جرى، يتحدث العربية التي تحدثها وحدها منذ تعلم الكلام. أخذته ووضعته في غرفة منفردة وحده، طمأنت الأطفال وأعادتهم بمساعدة فاتن إلى أسرتهم، أغلقت الباب، وقضت على الفوضى بالدار، ثم هبطت إلى أسفل،

نظرت لساعة يدها كانت عقاربها تشير إلى الثانية صباحًا، الوقت متأخر، ولكن الأمر لا يحتمل التأجيل، حزمت رأيها وأمسكت بسماعة الهاتف، واتصلت برقم معين تحفظه عن ظهر قلب، لطالما امتلكت ذاكرة فوتوغرافية فيما يخص الأرقام. دقيقة كاملة ثم جاءها صوت الأب بولس على الطرف الآخر من الهاتف، بصوت هادئ لم يمسه النوم بعد.

لم تدرِ ماذا تقول؟ في النهاية اختصرت الكلام كعادتها: سيدي الأب هناك شيء عجيب يحدث بالدارالتي أديرها، شيء ليس بشريًّا؛ طفل مصاب ربما بالمس..

قاطعها، قائلًا: ماذا تقولين يا دولت، لقد كنت تسخرين من ذلك الكلام.

توقفت ثوانٍ عن الإجابة، ثم استطردت لم أكن رأيت بعد، الطفل يتحدث لغة غريبة أحسبها قديمة للغاية ربما كانت الآرامية، ميزت فيها بعض الكلمات، مثل: قتل، إله؛ ولذلك لم يخطر على ذهني أي شخص آخر غير نيافتك. لا أعلم أحدًا يستطيع أن يساعدني في هذا الشأن غيرك. صمت القس لحظات، فكر خلالها، ثم حزم أمره على مساعدتها، حسنًا، صفي لي عنوان داركم بدقة، وسوف أعرج عليكم.

أغلق الهاتف، واتكأ على فراشه، فكر بعض الشيء من معرفته الجيدة بدولت يعلم جيدًا أنها امرأة جادة، بل

إنها امرأة حذرة، وهؤلاء إذا ادعوا مصيبة فتأكد أن بالأمر مصيبة بالفعل، صحيح أن الشياطين متواجدون حولنا بالفعل في كل مكان، بل إن الكتاب المقدس يثبت أن الإنسان الواحد قد يسكنه أكثر من شيطان. مزامير العلاج واستخراج الشياطين كثيرة وموجودة بالكتاب، ولكن الكنيسة تصر على شروط قاسية للقيام بعمليات الاستخراج تلك، وبالرغم من يقينه التام بالمس الشيطاني، وبالرغم من مقابلته لمئات الحالات إلا أن التصريح الكنسي سمح له باستخدام الطقوس في أربعة حالات فقط طوال حياته الكهنوتية، ثلاث منها نجت بفضل الرب، وواحدة توفاها الله، بعدما عذبها الشيطان. المرض النفسي يتداخل كثيرًا وأحيانا يعمي على المعالج، فالأعراض تتشابه بصدق.

فكر كثيرًا ولكنه حزم أمره وجمع رأيه على فحص الحالة أولًا، ثم يقرر بعدها. كان القس بولس رجلًا دمث الخلق معروفًا بحبه للجميع؛ عينان خضراوان، بشرة بيضاء ناصعة تشوبها حمرة معتدلة، أنف أرستقراطي معقوف، ولحية وشارب مهذبان، كان يرتدي عوينات بلا إطار زادته هيبة يغطي رأسه بقنسوة سوداء، كملابسه.

استقل سيارته، وخلال نصف ساعة كان يدخل بها من البوابة الخارجية للدار، صف السيارة بحديقة الدار، نظر لساعته؛ فوجد عقاربها تشير إلى الثالثة صباحًا. كانت دولت في انتظاره بالفعل تقف على الباب متأهبة، رأى في

عينيها وفاتن الكثير من الأرق، هاتان الابنتان مهمومتان بصدق، تلك عيون عجزت عن النوم، إذًا فالأمر مهم حقًّا، أريد أن أرى المريض يا ابنتي، أخذته دولت ووراءها فاتن إلى الحجرة التي وضعوا بها آدم.

كان القس يرتدي ملابسه الكنسية، يضع صليبه، وقد أحضر تلك القنينة الصغيرة الممتلئة بالماء ووضعها بجيبه.

وعلى باب غرفة الطفل، رسم صليبًا في الهواء، ثم فتح الباب بهدوء، دلفت وراءه دولت، أما فاتن ففضلت البقاء بالخارج، كفاها ما لاقت اليوم. كان يرسم ابتسامة لطيفة على شفتيه، زادت وجهه بهاء، كثيرون أخبروه أنه يبدو شديد الوسامة حين يبتسم، اقترب من السرير وخلفه دولت، كان آدم ما زال مستيقظًا لم ينم بعد. وعندما شاهد ابتسامة القس، بادله بمثلها، ولانت ملامحه، عندما اقترب منه بولس، وربت على رأسه وجبهته، حدثه بهدوء: بماذا تشعر يا ولدي.

- أشعر أني منهك، أريد أن أنام، ولا أستطيع.

- فلتحفظك عناية الرب، هل تصلي يا آدم.

- نعم، أصلي بعض الفروض، هل أنت مسلم أم مسيحي يا ولدي؟

- مسلم.

- إذًا؛ فلتقرأ عليّ فاتحة الكتاب.

شرع آدم في القراءة؛ حتى إذا جاءت الآية }إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ{، توقف لسانه تمامًا عن الكلام وأخذ الجسد الصغير يرتجف ثانية، عندما تمسك بولس بصليبه، وكأنه دبابة مجنزرة تحميه من بطش الشياطين.

وبدون أية مقدمات انقلبت سحنة الطفل البريء، أخذ يتشمم الهواء في حركة حيوانية، هبط من على سريره، وبقفزة واحدة كان أمام القس الذي شعر لوهلة برهبة عظيمة، وارتجفت يداه الممسكة بالصليب، حدق آدم بوجهه، وأخذ يتشمم رائحته، كحيوان مفترس، يهدد الضحية قبل أن يقضي عليها، ثم فتح فمه، وبصوت أنثوي بالغ عنيف، بدأ يردد جُملًا ومقاطع طويلة بلغة غير حية، وعى بولس معظمها، نظر حوله، قائلًا: رباه إنه يتحدث الآرامية بطلاقة مذهلة.

لحظات حتى تمالك جأشه، صرخ الصبي بوجهه باللغة الآرامية المدهشة، وكأنه ولد بالجليل، أنت رخيص أيها الآدمي، تظن أن ربك سيحميك مني، ربك اعتزلكم منذ زمان، لم يعد مشغولًا بك، لربما أدرك الخطأ، أما الآن يا صديقي فليس لك مهرب مني سواي، يجب أن تؤمن بي. أفاق بولس من رجفته، واكتسب ثقته ثانية من صليبه، أمسك الصبي بيسراه، وثبت الصليب أعلى جبهته بيمينه، هاتفًا بأعلى صوته:

أبانا الذي في السموات ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك،
لتكن مشيئتك، كما في السماء كذلك على الأرض، أعطنا
خبزنا كفاف يومنا، واغفر لنا ذنوبنا وخطايانا،
كما نحن نغفر أيضًا لمن أخطأ وأساء إلينا،
ولا تدخلنا في التجربة،
ولكن نجنا من الشرير
لأن لك المُلك والقدرة والمجد إلى أبد الدهور.

وجدت دولت نفسها لا شعوريًّا تؤمِّن، وتبعتها فاتن بالخارج لا إراديًّا: آمين. آمين.

بدأ جسد الطفل يهتز بعنف بين يده، حاول الصبي عض القس بأسنانه، ولكن الأخير دفعه بقوة؛ فارتطم جسده الصغير بجدار الغرفة، وسقط على وجهه، وأخذ يتقيأ.

اقترب منه القس في حذر، وما إن صار على بعد خطوة واحدة منه؛ حتى انتصب آدم ثانية، وبدأت كافة الموجودات في الغرفة تهتز بقوة، بينما أخذ هو يضحك بعنف، تساءلت دولت في داخلها: كيف لهذا الجسد الصغير الرقيق أن يتحمل هذا المخلوق الكريه؟

جعل يصيح بنفس الصوت المخيف، وبالعربية هذه المرة: سوف أقتلكم، سوف آكل لحومكم، أهشم عظامكم، أنتم ضعفاء. ثوانٍ ثم لانت ملامحه وسقط أرضًا ثانية، هذه المرة أسرع بولس بحمله، وضعه على السرير، أمر بإحضار ماء،

أسرعت فاتن بإحضار إناء، قرأ عليه القس بعض الآيات، ثم مسح به وجه الطفل وجسده، انتابه في البداية رعشة قوية، ثم ما لبث أن هدأ واستكانت عضلاته، ورحل في ثبات عميق.

أخذهم بولس وخرجوا من الغرفة، نزلوا سويًا إلى غرفة دولت بالأسفل كانت الساعة تناهز الرابعة والربع، وقد تعالت أصوات المآذن معلنة وصول فجر جديد.

جلس بولس بينما أعدت فاتن قدحًا من القهوة، ثم بدأ يتحدث: هناك بالفعل شيطان يستحوذ على جسد هذا الصبي المسكين، الأمر ليس هينًا بالمرة، هذا شيطان عتيد متمرس، قد يبلغ عمره آلاف السنين لا أدري ما الذي جاء به هنا، أريدكم أن تخبروني كل شيء عن الصبي، كيف وصل إلى هنا، متى ظهرت عليه تلك الأعراض؟ من الذي احتك بهم؟

أسرعت دولت تجيب: الطفل كان طبيعيًّا مائة بالمائة حتى أمس، حدث له حادث.

استوقفهم مستفهمًا: حادث ماذا؟

لقد أخبره بعض الصبية بقصة سخيفة عن ساحرة كانت تعيش بالدار قديمًا، تقتل الأطفال وتحتفظ بجثثهم في البئر الخلفية، وأن من يستطع الصمود أكثر من عشر ثوان؛ فإنه سيسمع صراخهم، وبالفعل حاول الصبي وحده أمس مساء،

وجلس طوال الليل فوق ألواح البئر، ولولا فضل الرب علينا، لدُقت عنقه ومات، ومن وقتها بدأت تلك الأعراض.

أومأ القس متفهمًا، نعم، الآن بدأت تتكشف الحقائق، تلك الكائنات الشريرة تسكن تلك الأماكن القديمة المغلقة تتغذى على الخوف، بالطبع طفل صغير وحده في الظلام يؤدي طقس لا يعلم عنه شيئًا، تلك فريسة سهلة للغاية، وعندما شعر الصبي بالخوف استطاعت أن تتملكه.

المشكلة الحقيقية أن استخراج مثل هذا الشيطان ليس بالأمر البسيط بالمرة، قد يحتاج الأمر إلى شهور، موافقات، بالإضافة إلى أنه مسلم الديانة، ومن الجائز ألا توافق الكنيسة على عملية الاستخراج.

ابتدرته دولت مرتعبة: وماذا ستفعل أيها الأب؟

نحن لن نحتمل هذا.

حرك رأسه مفكرًا، تنحنح، ثم قال:

أعتقد أنني أستطيع أن أجد حلًا، فقط...

فقط ماذا؟

فقط أخشى...

أرجوك أن تساعدنا، فنحن لا قبل لنا بتلك الأشياء، أنا أثق بك، وأثق بقدرتك على الشفاء.

أسرع يقول: العلاج من عندنا، أما الشفاء فمن عند الرب.

الفصل الرابع

علامات

2016

صباح مشرق اختلطت فيه رائحة الأمطار مع أريج الزهور البرية مع صبا لطيف يحمل عطور البرتقال، يأتي من تلك النافذة البحرية، والتي جلسا بجوارها بالمستشفى رفع الطبيب التخطيط العصبي، ورسم المخ أمامه، ثم أخذ يفحص تلك الأشعة المقطعية الخاصة بأدهم، تأملها كثيرًا ثم رفع عينيه بعيني أحمد صديقه، قائلًا: كما توقعت بالضبط لا يوجد أي خلل، رسم المخ طبيعي، الأشعة المقطعية سليمة، هناك شيء ما غريب بالأمر، أنت تعلم بالطبع يا صديقي أن المرض النفسي ليس بالضرورة أن يكون له دلالات أو علامات طبية، على عكس الأمراض العضوية، ولكني أردت فقط استبعاد بعض الأورام التي قد تؤثر بشكل قوي على الشخصية، ولربما تتسبب بمثل هذه الأعراض.

هناك عدة حالات، رأيت منهم حالة بالفعل، استطاعت أن تكتسب القدرة على تحريك الأشياء عن بعد؛ نظيرًا لتعرضها لورم حميد في الفص الأمامي للمخ، وتلك حقيقة دامغة، طفل آخر تم إصابته بحادث تأثر به المخ لفترة طويلة وسقط في براثن غيبوبة، وعندما عاد تبدلت شخصيته

تمامًا، ووجدوه يتحدث بلغة مختلفة لم يعلم عنها شيئًا طوال حياته، وعندما تتبعوا الأمر وجدوا أنها السومرية التي تحدث بها أهل العراق منذ آلاف السنين، وتلك الحالة أيضًا موثقة في كتب الطب النفسي، العقل البشري، آه يا صديقي من هذا العقل البشري وأعاجيبه.

لأول مرة أسمع هذا الكلام.

عجيب جدًّا ما تقول يا صديقي، تلك أمور تنتمي إلى ما خلف جدار العقل، تلك الأشياء التي تقولها تُعد من وجهة نظر طبيعية أو أكاديمية محض خرافات.

أومأ برأسه موافقًا: أتفق معك تمامًا، لكن ماذا تقول إذا علمت أن تلك الحالات تم تسجيلها، والحديث مطولًا عنها في أوراق علمية نُشرت بدوريات تُحترم في مجال الطب النفسي، وغيرها الكثير والكثير؛ العلماء الألمان، والسوفييت، ومن بعدهم الأمريكان قاموا بالكثير من البحث خلف تلك الأمور الشائكة، ودراسة العديد من الحالات التي تمتلك قدرات عجيبة، وما تلك الأفلام التي تشاهدها في السينما العالمية لأبطال خارقين إلا صورًا معدلة من شخصيات حقيقية تنتمي لواقعنا، لكن ليس بالطبع بذلك الزخم السينمائي المعروض.

أخذ أحمد يقلب رأسه متعجبًا، عندما دخلت عليهم الممرضة لاستدعائه:

دكتور أحمد الجميع يبحث عنك، هناك حادث كبير، والعديد من الحالات تم تحويلها من الاستقبال لقسم الجراحة لضرورة إجراء عمليات سريعة إنقاذًا لحياتهم، انتفض أحمد واقفًا، وجعل يركض ووراءه الممرضة، في حين نادى عليه صديقه من بعيد، إن كان هناك أي شيء أستطيع أن أساعدكم فيه؟

لم يستمع أحمد لكلمات صديقه، لم يأخذ حتى المصعد، بل أخذ يركض على سلالم المستشفى نحو قسم الجراحة، في حين عاد صديقه لمقعده وبدأ يتأمل في الفحوصات والأشعة التي أمامه، والتي تخص الطفل أدهم، سرح طويلًا في الفحوصات. وعلى حين غرة أصابته رجفة بسيطة لا إرادية تكررت أكثر من مرة، ومضات ضوئية بدأت تظهر فجأة أمام عينيه، أرخى ربطة عنقه، وقام من كرسيه، هرع سريعًا إلى حقيبته، ثم بأيدٍ مرتعشة أخرج علبة دواء صغيرة تحتوي على بعض الأقراص المغلفة، ابتلع أحدها في سرعة وهو يمسك رأسه، ألم رهيب يعصف بذهنه.

ثم ساحة كبيرة واسعة، حلبة قتال رومانية إن أردت الدقة، نظر لجسده فوجد نفسه يرتدي ملابس عجيبة أشبه بملابس المحاربين الرومان، مدرج مهيب امتلأ عن بكرة أبيه بأناس وجوههم مشوشة، بالضبط عندما تسقط بالحلم فتتشابه كل الوجوه بالخلفية فلا تدرك كنهها، هو يعلم جيدًا أن العقل الباطن هو المتحكم الآن، يظهر ما يريد ويخفي عنه

ما يريد، نظر ليديه، فوجد باليمنى سيفًا قصيرًا مزدوج الشفرات، وفي الأخرى رمحًا مدببًا، عبارة عن عصا قوية من خشب البلوط، مثبتًا بطرفها سكين حاد، الجماهير الغفيرة تلهب بأصواتها الحلبة، ومن بعيد رأى غريمه.

رباه، إنه عملاق يناهز المترين والنصف طولًا، يحمل رأس ذئب أو يرتدي قناعه، يمسك حربة بثلاثة رؤوس، وفي الأخرى جنزير حديدي قُدر وزنه بمائتي كيلوجرامًا على الأقل، تنتهي أطرافه بأشواك حديدية، اقترب هذا الوحش منه في تؤده، وببطء مثير للأعصاب، رباه ألن يؤتي هذا القرص مفعوله؟ ويخرجني من براثن هذه الرؤيا العجيبة، منذ زمن طويل وقد تعود على هذا، بل أنه توصل بالفعل للعلاج، لكن دائمًا ما تكون هناك مقدمات، تجعله يسرع بتعاطي العلاج، ولكن تلك المرة كانت مفاجاة، حتى هذه الرؤية كانت جديدة بالمرة لم تحدث مسبقًا.

أخذ يضرب رأسه بيده علَّها تستفيق، ولأول مرة يلحظ الخوذة التي يعتمرها. ثوانٍ هي كالدهر، والعملاق يقترب، لقد علموه في الطب النفسي أن البطء قد يولد الانفجار عند بعضهم، ولكنه قد يسعد الآخرين، أعتقد أن ذلك العملاق ينشد تحطيم أعصابه، وأخيرًا صار على بُعد خطوات منه، رآه واضحًا الآن، بالفعل عملاق طويل مهيب، يرتدي أثمالًا وخرقًا بالية، تظهر من بينها عضلات صدره وكتفيه، قبضة يده كأنها الجحيم بأصابع طويلة وأظافر حادة

سوداء، كان يمشي على قدميه، ويجر تلك الحربة على الأرض خلفه بهدوء، أما الرأس فكان بالفعل رأس ذئب، وليس مجرد قناع؛ العينان، الفم الأنياب، وحتى اللعاب الذي يسيل من شدقيه، وبدون سابق إنذار علا الهُتاف من كل الأركان، وزأرت السماء برعد يلتهم الأفئدة، أعقبه سنا برق يكاد يخطف الأبصار، ثم بدأت السماء تنهمر بدموع كالمطر، ولكنه ليس مطرًا بحال، سقطت بعض القطرات على جسده، فالتهمت جلده في الحال، رفع رأسه للسماء فوجدها حمراء كلهيب النيران، حاول حماية جسده والبحث عن أي ملجأ من تلك الجحيم الموقدة، ولكن العملاق عاجله بقفزة تناهز الثلاثة أمتار ورشق حربته في جسده، حاول الإفلات في اللحظة الأخيرة، ولكن الحربة الثلاثية كانت قد اخترقت الكتف، صاح من شدة الألم، بينما قهقه العملاق إن كان هذا الوجه يستطيع حتى أن يبتسم. لوى حربته داخل الجرح، فناء هو من حمل الألم، وسقط راكعًا على إحدى ركبتيه، اقترب العملاق أكثر، حدق في وجهه، وفح فيه، وبصوت هزيم الرعود بالسماء ومن بين أنياب مدماة، قال: أنت لست ندًا لي أيها الطبيب.

حرك رأسه يمنة ويسرة محاولًا أن يستفيق، ولكن الوحش عاجله بلكمة بيده الأخرى الملتف حولها الجنزير، مثبتًا بحربة ثلاثية تخترق صدره، وقبضة كمدافع الهاون تحت نير الغزو النازي لشرق أوروبا تصدع جمجمته.

بالطبع أطاحت به القبضة عشرة أمتار كاملة، استلقى هذه المرة على الأرض، لولا قطرات المطر الحارقة تلك، لغاب عن الوعي منذ زمن، قبضة كتلك لكفيلة بأن يلاقي بها حتفه في عالمه، حمدًا لله أننا ما زلنا في تلك الرؤيا، رباه الأمطار الحارقة ما زالت تنهمر فتكوي جسده، يبصر من بعيد أقدام الذئب تقترب، كان واثقًا بنفسه هذه المرة خطواته بدت أقوى، أصلب، أسرع، اقترب حتى وقف بجوار جسده المنهك.

هذه المرة الحربة لن تفلت هدفها، كان يعلم أن تلك الومضات التي تلاحقه تستطيع أن ترفع ضربات قلبه لاختراق حدودها المسموحة، وتدخله في ارتجاف بطيني أو ربما أُذيني كافٍ بأن تصعد روحه إلى بارئها في سلام. رباه ألهذه الدرجة تلك الرؤية قاتلة؟

انفرجت أسارير وجه الذئب وركله بقدمه، ثم مدّ له يدًا معروقة بدماء سوداء، قائلًا: إن أردت أن أساعدك ليس عليك سوى أن تطلب.

أخذ جسده يرتجف بعنف، ملامح الحلبة تختفي؛ ليحل محلها غرفته بالمستشفى، الصورة ما زالت مشوشة، ضربات قلبه ما زالت تحلق بعيدًا، ترفض العودة إلى الأرض، أنفاسه تلاحق بعضها، وكأنها تفر من مستعمرة لآكلي لحوم البشر.

عشر دقائق كاملة، وهو راقد على ظهره يتحسس نبضاته، حتى استطاع أن يفيق، تحسس صدغه، كان ما زال يؤلمه، توجه إلى تلك المرآة الموجودة خلف باب الحجرة، نظر لوجهه، رباه إنه يبصر بالفعل احمرارًا طفيفًا محل تلك اللكمة، خلع زيه الطبي وقميصه بسرعة وتحسس كتفه؛ ليجد كدمة واضحة أيضًا، مع بعض السحجات، سرح بخياله بعيدًا، وأمسك بعلبة الدواء وخاطبها أشكرك، ولكن أعتقد أنه كان بإمكانك الإسراع بعض الشيء، تلك المرة لم تكن هينة.

تعود منذ زمان على تلك النوبات من الإغماءات، تعود عليها كثيرًا، أحيانا يزور بلدان بعيدة، وأحيانًا يغوص مع الحيتان في المحيطات، حتى أنه وجد نفسه مرة ملاحًا فرعونيًّا يجدف بقاربه بجوار أفراس النهر الرائعة، كان يعلم جيدًا ألاعيب العقل، يحفظها عن ظهر قلب، كما كان يعلم السبب فيما يحدث له، تعود عليه منذ سنوات طوال، ما إن تبدأ العلامات حتى يسرع بتناول الدواء، وخلال لحظات تختفي النوبة ويعود بسلام، ولكن تلك المرة باغتته بحق، حتى إنها مكثت وقتًا طويلًا، نظر في ساعة يده فوجد ربع ساعة كاملة قد مضت عليه. نفض عن رأسه ما رأى، وعاد يراجع أوراقه وتقارير مرضاه.

***

جلس الجميع في ردهة المنزل بالدور السفلي، كانت

عقارب ساعاتهم تشير إلى السادسة مساء، رائحة تبغ رائق مع عطر القهوة التي تطبخها السيدة بالداخل تملأ أنفي، وتتسلل إلى رئتي؛ فتغسلهما من رائحة المستشفيات، كان أحمد صديقي أول من ابتدر الحوار، وهو يشير إليّ قائلًا: لقد وافق صديقي على الحضور ثانية؛ لمراجعة آدم بعد ظهور نتيجة الفحوصات، لم يتبق إلا فحص الدم، لقد نسينا أن نسحبه بالمستشفى، والممرضة التي أرسلتها أخبرتني أنها لم تستطع أن تعثر له على وريد، يا للطفل المسكين، صارت كل أوردته غائرة.

نكس والد آدهم رأسه محدقًا بسجادتهم الصوفية الثمينة، وتلك السيجارة السمراء تلمع بين أصبعيه، وعطرها الشجي ما زال يداعب أنفي، لقد أقلعت عن التدخين منذ زمان، لكني لن أمانع أبدًا أن أتذوق نكهة تلك السمراء اللعوب، كلما أبعدت عيني عنها، جذبت أنفي برائحتها، أفقت من شرودي وطمعي في السيجارة السوداء على صوت الرجل وهو ينتحب، لقد حسده أحدهما بالفعل، عدلت من وضع عويناتي، وتنحنحت، بينما حضرت السيدة لبنى تحمل تلك الصحفة الأثرية المذهبة، وقد وُضع عليها أربعة أكواب من الجنة تفوح منهما رائحة البن الكولومبي الذي أعشقه، أسرعت بأخذ كوبي، قبل حتى أن تقدمه هي لي، ولكنها أوقفتني، وأشارت بعينها، السادة أقصى اليمين يا سيدي، أسرعت بأخذ فنجاني، رشفت منه رشفة طويلة، ثم تجاسرت

وطلبت من الأب سيجارة، نظر لي الرجل مبهوتًا، وأمسك بالعلبة، وأعطاني إياها، أخرجت تلك السمراء الفاتنة الملتوية، ووضعتها بفمي، بينما أخرج هو قداحته وأشعلها، جذبت نفسًا طويلًا، ثم رحت أسعل بشدة، إنها حارقة، لم أتوقع أبدًا من صاحبة تلك الرائحة الفاتنة أن تكون بهذه القسوة، ظللت أسعل، فاضطررت أن أطفئ السيجارة بالمنفضة أمامي، لحسن الحظ أني كنت قد تركت الفنجان على المنضدة مسبقًا.

عُدت أتشبث بفنجان قهوتي الكولومبي، كالمحموم، وأنا أقول: فحص الدم مهم جدًّا، وقد قررت ألا أبدي أية آراء مسبقة قبل المناظرة الطبية،

عاجلتني هي، وماذا عن بقية فحوصاته؟

أومأت برأسي: لقد جاءت كلها مطمئنة؛ لتمحي أي شك بداخلي، ولكن هناك ثمة شيء ما غير طبيعي بالأمر.

أردفت السيدة، وهي تمسك بفنجان قهوتها بكلتا يديها، وعيناها تدمعان، أريد لولدي الخلاص، أريده أن يستريح. أدهم يتعذب يا دكتور، ونحن ننظر إليه لا نستطيع أن نفعل له شيئًا، وأنت تخبرني أنه مريض نفسي،

أخذ الزوج يحتويها بكلتا ذراعيه، بينما غابت هي بين أحضانه، ونشيج بكائها ما زال مرتفعًا.

نظرت للحسناء السوداء التي أهنتها بمنفضة السجائر

أمامي، وجُلت بعيني بينها وبين العلبة الأم، ولكن سرعان ما وأدت الفكرة، رفعت عيني صوبهما، وقلت: يا سيدتي لا بُدَّ من وجود علامات دامغة؛ لتؤكد موضوع اللبس الشيطاني هذا من عدمه، أنا لا أنكر وجوده، ولا أنكر أني قابلت حالات بالفعل، ولكن لا بُدَّ من دليل.

مثل؟ تساءل الأب

نظرت للثريا الفخمة المعلقة بالسقف، ولوهلة شعرت أنها ترتجف. يبدو أنني لم آخذ حقي من النوم مؤخرًا، ثم أعدت ناظري للرجل، وأجبته: نفور من الأشياء المقدسة، مثل: القرآن، الإنجيل، الصلبان، ومعرفة غير محدودة لشيء أو حدث، الشخص المستحوذ عليه لا يمكنه بحال امتلاكها، وأيضًا القدرة على التحدث بلغة أو لغات لا يدركها، ولم يتعلمها مسبقًا، وتلك الأشياء لم تتوفر في حالة أدهم.

هاجمني الرجل مسرعًا، بينما ظل يربت على رأس وكتف زوجته، والدته سمعته يتحدث بلغة غير مفهومة.

ابتسمتُ، وأنا أتلذذ بطعم قهوتي، لا يكفي يا سيدي.

هنا صاحت هي: إذًا علينا أن ننتظر حتى يضيع مني ولدي، أصبح لا يأكل، ولا يتحدث، ولدي يضيع مني.

أنا لستُ دجّالًا مشعوذًا، أنا أحدثكم كطبيب نفسي يعترف بالعالم الآخر؛ عالم الجن والشياطين، أنا لا أنكره، ولكن شروطه ليست هينة بالمرة، وتدخله مع المرض النفسي يكاد

يصل لدرجة التطابق، ولقد وصلت في النهاية إلى نظرية مرضية.

نظر لي الجميع بتلهف، رحت أجول أنا في أعينهم، ثم أكملت: "أعتقد أن المخ البشري هو قطعة رائعة ومعقدة من الآلات، وأن الحضارات الأولية ناضلت كثيرًا، وحاربت كثيرًا أيضًا لفهم كيفية عمل هذه الآلة الجبارة، ولما فشلوا بدأوا ينقبون عن استعارات لشرح وتفسير تلك المفاهيم التي كانت بعيدة عن إدراكهم، فهداهم تفكيرهم لإقحام عالم الجن والشياطين في هذا الأمر إرضاء لأنفسهم".

فما من حضارة على وجه الأرض إلا وبررت المرض النفسي كنوع من اللبس أو الاستحواذ.

أنا طبيب مسلم ومؤمن بوجود الله، وأعترف بالفعل بوجود تلك العوالم المختلفة عنا، وهذا مثبت في كل الأديان، أما أمر اللبس هذا فمسار جدل واسع النطاق، صدقوني بعد كل تلك الأعوام والبحث في هذا المجال وصلت إلى حقيقة مطلقة، لا يوجد غير المرض الذهني وإن اختلفت أشكاله، ولكنه في النهاية مرض ككل الأمراض. واعلموا أنكم تخاطبون طبيبًا نفسيًا شغل نفسه لأعوام، وأعوام بهذا الموضوع، وخرجت منه في النهاية خالي الوفاض.

إذًا ما الذي أصاب ابننا؟ قالها الرجل.

هممت بالرد عندما تناهى إلى مسامعنا صوت ارتطام عنيف بالأعلى تسبب في ارتجاف الثريا بالسقف، أعقبته صرخة مدوية، وفي الحال هرعنا جميعا لأعلى؛ لنتفقد حجرة الطفل، كان الأب أول من وصل، وفتح الباب؛ لنجد أدهم ملقى على الأرض، يرتجف بعنف وأسنانه تصطك ببعضها، تعاونا على رفعه، وإعادته لسريره حينما زجرنا ودفعنا جميعًا، وانتصب الطفل في وسط الغرفة، كانت عيناه تتقدان شرًا، أخذ يسب فينا ويرمينا بأقذع الألفاظ، سوقية، متدنية، ثم شرع يتوعدنا بالذبح والقتل، وقف ثلاثتهم مشدوهين، بينما اقتربت أنا منه في لين، حاولت أن ألمسه كنوع من التعاطف الجسدي، ولكنه صفعني صفعة قوية، اهتز لها جسدي، نظرت له معاتبًا، ماذا تفعل يا أدهم؟

كشرعن أسنانه، وفحّ في وجهي، وتحدث قائلًا: سوف أقتلك أيها الطبيب، تحسب نفسك ذكيًّا، أنتم كلكم أغبى مني بكثير، نحن جنس متفوق عنكم، لعله قد أدرك خطأه، فمازال الوقت متوفرًا؛ لكي يصلحه، نحن أسيادكم.

سألته بهدوء: من أنت ما اسمك؟

تجاهل سؤالي ضاحكًا: سوف ألقيك بالبئر، لن تخرج منه حيًّا هذه المرة، في بيت صانع الأحذية لا توجد أحذية، وشرع يفعل بعض الحركات الصبيانية، وكأنه قد انتصر..

كم من الوقت ستحتاج حتى تفقد السيطرة.

وقفت أنا مبهوتًا في حين مد هو يده جهتي، وصرخ بعنف: كل ما عليك هو أن تطلب فقط، وسقط على الأرض دفعة واحدة. أسرعنا نحوه فحملناه، بينما جاءت الأم ببعض الماء والعصير، وحاولت أن تسقيه،

أصررت هذه المرة على نقله للمستشفى، عارضت والدته كثيرًا، ولكني طمأنتها أنها تستطيع أن تأتي معه، وتجلس بجواره.

نقلناه بسيارة الأب إلى المستشفى الخاص التي أعمل بها، على الفور طلبت له بعض فحوصات الدم، بالإضافة لإعادة الأشعة مرة أخرى، لربما فاتنا شيء المرة السابقة. تركته وعدت إلى منزلي، سلمت على والدتي وقبلتها، قامت من فورها لإعداد العشاء، دخلت وراءها المطبخ فشرعت تتحدث حديثها المعتاد المطول عن عدم زواجي، وابنة الحلال المنتظرة، وأخي الأصغر مني بتسع سنوات كاملة، وقد أنجب بينما مازلت أنا أرفل في ظلام العزوبية المؤلم، أخبرتها أن ظلام العزوبية أرحم ملايين المرات من نير الاستعباد. يا بني أريد أن أطمئن عليك قبل الرحيل، قبلت يديها ثانية، قائلًا: أطال الله عمرك يا صغيرتي.

دفعتني برفق، أنا لا أمزح هذه المرة.

قطعت الحديث بأني سأذهب لآخذ حمامًا دافئًا افتقدته منذ

زمن.

تناولت العشاء مع أمي، ولكن ذهني كان يحلق عاليًا، بعيدًا، في تلك الكلمات التي قالها أدهم أثناء النوبة التي أصابته: كل ما عليك هو أن تطلب فقط، بالطبع أتذكر جيدًا أين سمعتها، في تلك النوبة الأخيرة التي داهمتني على حين غرة، أخذت كلماته تتردد في ذهني مرارًا، كيف علم. كيف له أن يعلم ما حدث داخل ذهني أنا فقط، انتبهت والدتي إلى شرودي وكانت تجلس جانبي على المنضدة، وضعت أناملها على يدي فأمسكت بيدها، ولثمتها.

نظرات عينيها تستجوبني. ما أخبار تلك النوبات يا ولدي؟

ولكني ربت على يديها مطمئنًا، لا شيء جديد.

تركت مقعدها واحتضنتني في صدرها، ربتت على ظهري، وقالت أنت قوي يا حبيبي، أقوى حتى مما تتخيل، لا تجعل شيئًا يهزمك ربتت على يدها ثانية مطمئنًا، وأجلستها، طردت تلك الأفكار العجيبة من ذهني تمامًا، وأخذت أستمتع معها بالعشاء الشهي.

الفصل الخامس

التطهير

1977

جلست دولت على كرسي مكتبها شاردة، تعبث بخصلات شعرها الأسود المصبوغ، الكل لا يعلم ما بداخلها، لقد أصرت دائمًا أن تكون كالقلاع، ما بداخلها يبقى بداخلها، وما للناس للناس، منذ اليوم الذي رحل فيها حبيبها وصديقها وزوجها، وقد توقفت الحياة، حاولت جاهدة أن تعيدها، فالرب لا يحب هذا أبدًا، ولكن المصاب كان أقوى منها، حاولت وحاولت مرارًا، وبمساعدة الكثيرين، وفي النهاية عادت ولكنها أبدًا لم تَعد مثلما كانت، تلك الوردة المتفتحة، الموجة الشقية التي كانت تحب الحياة، صارت راهبة، تعزف عن مصادر السعادة، وشيئًا فشيئًا ذوي جمالها، ورحل تألقها، وصارت جسد بلا روح.

شغلت نفسها في تلك الأعمال، ووهبت نفسها لهذا المجال، رعاية الأطفال، كم حلمت أن يكون لها منه طفلًا، كائنًا ملموسًا يخلد قصتهما معًا، ولكن الله دائمًا ما له خططه، لم تعترض، ولكنها اعتبرت أن كل هؤلاء الأطفال أبناؤها، بالطبع كان لكل أسلوبه، هي كانت ترى أن الانضباط، والترهيب، والعصا هي وسيلتها في خلق أجيال من الصالحين، بينما كان الجميع يخشاها، ويرتعب

من محياها، ولقد أعجبت بهذا أيَّما إعجاب، وساعدها فيه هيئتها الضخمة، خبأت قلبها الصغير الرقيق بداخلها، وأظهرت وجه الوحش، الاسم الذي أطلقوه عليها، كانت تداري مشاعر الشفقة والحنان، وتغلفها بوجه غليظ حتى يستمعوا لكلماتها، كل ما كانت تبغيه هو أن يصيروا أفضل.

وعندما داهمتها تلك الحالة الغريبة مع ذلك الطفل الصغير آدم، لم تملك مشاعرها الحقيقية إلا أن تطفو على السطح، وجعلت تدعو الرب وتبتهل؛ لينجيه الله من هذا العذاب.

ظهرت الأم الحقيقية التي لم تظهر لأحد مسبقًا، حتى إن فاتن لاحظت اللين العجيب في كلماتها، وهو شيء لم يتعوده أحد منها قبل الآن.

فلم تملك هي الأخرى غير أن دعت للولد.

ثلاث ليالٍ الآن منذ حدثت الواقعة للصبي، لم تعد تغادر الدار، باتت الليلتين الماضيتين بإحدى غرف الإشراف، لم تُرد أن تكون بعيدة، كانت تريد أن تكون متواجدة باستمرار، حاولت كتمان الأمر، ولكن تلك الأمور كانت أصعب بكثير من استطاعتها وأدها، الكل كان يعلم، والكل كان يعلم أنها لا تريدهم أن يعلموا، فكانوا يتهامسون بينهم وبين بعضهم خوفًا من غضبها، أما الطفل فساءت حالته كثيرًا، فكرت أن

تبلغ الإدارة المركزية وليبحثوا له عن حل، ولكنها بالطبع قدرت إن أمرًا كهذا، قد يكون سببًا في ضياع الطفل تمامًا أو موته، فمن يا ترى سيهتم به مثلها؟

كانت تشرف على إطعامه، وجباته، نومه، واستيقاظه بنفسها، بل إنها دبرت لعلاجه، بالتنسيق مع الأب بولس.

اقتربت الساعة من العاشرة مساء، وهو الموعد الذي تم تحديده مسبقًا مع القس؛ ليأتي بصديقه، ذلك الشيخ العالم بهذه الأشياء، لقد أخبرها الأب أنه يثق فيه ثقة عمياء، ويعلم إنه ليس رجلًا مشعوذًا، بل بالعكس، وهو لا يتقاضى أية أتعاب، ولطالما تعاونا سويًا في مساعدة الأبناء، رغم اختلاف الديانة ولكن المشكاة واحدة والعدو أيضًا معروف. هي أيضًا تثق في بولس ثقة عمياء، فبالرغم من أنه يصغرها بالعمر، ولكنه كان داعمًا لها بصدق في أزمتها بعد وفاة زوجها الحبيب، كان دائم الاطمئنان عليها، وتوجيهها، وتذكيرها بالتقرب إلى الله.

كانت قد دبرت أن تكون مشرفة السهر معها في تلك الليلة فاتن، فهي تعلم كل شيء، ولن تجد فضولًا هو آخر ما تود أن تلاقيه.

أفاقت من شرودها على صوت سيارة بالخارج، قامت مسرعة لتستقبل ضيوفها على الباب، دخل القس بولس يتبعه صديقه الشيخ، قام القس بالتعارف بينهم، قائلًا:

الشيخ عبد النبي أمين الذي حدثتك عنه، وهو رجل دين أثق فيه كثيرًا، بل ورأيت الكثير من الشفاء على يديه، سيساعدنا الشيخ عبد النبي، وفي نفس الآن نخرج من حرج التوثيق بالنسبة للاستخراج.

رحبت دولت بالشيخ الذي كان متوسط الطول يميل نسبيًّا للقصر، أبيض البشرة، ذو لحية خفيفة بيضاء، عينان بنيتان واسعتان بشكل ملحوظ كعيون المها، يغطي رأسه بعمامة بيضاء أيضًا، ويرتدي جلبابًا ناصع البياض، كان رجلًا بشوشًا خمنت عمره في بداية الخمسينات.

كان كل منهما يحمل كتابه المقدس في مشهد لم تره دولت طوال حياتها، صعدت أمامهما؛ لتريهما الطريق، بينما طلبا منها البقاء بالخارج، ولكنها رفضت بقوة، كانت تريد أن تطمئن على الصبي بوجودها، بالإضافة إلى الفضول، فضول شديد ورغبة في المعرفة منعاها من ترك الغرفة، بينما انتظرت فاتن بالخارج تحسبًا لأي شيء.

كان الطفل نائمًا بالفعل حين ولجا الغرفة، أضاءوا الغرفة، وبدأ الشيخ بقراءة بعض الآيات من القرآن، بينما جلس القس في ركن قريب يقرأ بهدوء من الكتاب المقدس، نصف ساعة كاملة انقضت بدون أي تغيير، وعلى حين غرة أفاق الطفل من نومه على نوبة تشنجات قاسية، وطفق يفرغ ما في معدته على الأرض، اقترب منه الشيخ ووضع يده على جبهته، وبدأ يقرأ، بينما ازدادت حدة التشنجات،

ثم فتح الطفل عينيه عن آخرها، أخذ يهزي بكلمات غير مفهومة، حروف غير مترابطة، ثم نظر جهة دولت الواقفة من بعيد، وابتسم لها قائلًا: زوجك يقرؤك السلام.

زاد الشيخ من حدة صوته في ترتيل آياته، والتي ترتبط معظمها بالجن والشيطان، ثم جعل ينهر الطفل أو الكائن بداخله، ما اسمك يا خبيث؟ بادله الطفل النظرات باستغراب.

جعل يعيد الكرة: الله محبط ما كنتم تعملون. آمرك أن تخبرني باسمك أيها الشيطان.

هنا بدأت الموجودات كلها بالغرفة تهتز، ومعها اهتزت ثقة الشيخ عبد النبي، الذي نظر بدوره إلى صديقه بولس، والذي زاد تشبسه بقوة بالكتاب المقدس، أخذ يقرأ هو الآخر بصوت عالٍ: القديسة مريم. صلي لنا. القديس جبرائيل صلِّ لنا، القديس بولس صلِّ لنا.

إن الله يأمرك أن تخرج من هذا الجسد البريء لابن الرب الذي دنسته. عيسي الناصري يأمرك أن تخرج. ملائكة الرب تأمرك أن ترحل.

وكأنما اكتسب الشيخ بعض القوة من رفيقه، فقام بدوره يحارب الشيطان هاتفًا: بسم الله الرحمن الرحيم }إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ{.

أخبرني باسمك أيها الملعون.

أغمض الصبي عينيه، وبدأ يتحدث بسرعة وبلغة لم يعِها الشيخ، ولكن بولس كان يدرك كل حرف فيها، أخذ يردد بعض المقاطع. نظر الشيخ لرفيقه الذي أومأ له برأسه ليكمل، ثوان ثم توقف الصبي عن الكلام وسكن جسده تمامًا، ربع ساعة أخرى مرت عليهم، ثم عادت الرجفة ثانية للطفل مع تشنجات عنيفة، ونوبات قيء، وفي الأخير زاغت عيناه وفقد الوعي، هرعت حينئذ دولت تجاهه، جعلت تحتضنه بصدرها، تحاول إفاقته تمسح على جبينه.

دقائق هي كعمر الدهر؛ حتى أفاق، أراد الرجلان أن يكملا ما بدآ، ولكن دولت حالت دون ذلك، رفضت تمامًا، قائلة: يكفي الليلة.

أومأ الشيخ متفهمًا، وخرج هابطًا السلالم يتبعه القس بولس، وقفا بالردهة الخارجية للدار بالأسفل، تحدث الأول، قائلًا: أول مرة أرى مثل هذا، هل رأيت الأشياء، وهي ترتجف بالغرفة لاشك أن هذا الكائن يملك قوة عاتية للتأثير في الموجودات بعالمنا.

أومأ القس موافقًا، إنه يتحدث الآرامية كأنما ولد بالجليل، لقد فحصت وتتبعت، وعلمت أن حتى اللهجة التي يتحدث بها هي لهجة أهل الجليل الذين عاصروا المسيح. تلك لغة المسيح يا شيخ عبد النبي، إن هذا الشيطان لقوي بحق، ولولا قوة إيماننا لقضى علينا في الحال.

وافقه عبد النبي، الأمر جد خطير، لقد ارتجفت عندما وجدته يستطيع تحريك الأشياء عن بعد.

لا بُدَّ أن نكمل ما بدأنا في أقرب وقت؛ حتى لا نتسبب في ضرر للطفل، كانت دولت قد لحقت بهم بالأسفل لتنظر بأعينهم مستفسرة، فأسرع بولس يطمئنها، الصبي ملبوس بروح قوية، ولكننا حتى الآن نسيطر على الأمور، فاطمأني، لقد رأيت الكثير من تلك الأشياء، والحق أقول أن الذي بالأعلى هذا مارد قوي مخضرم، وما الذي جعلك تقول هذا؟ تساءلت دولت.

لقد ذكر الصبي مقاطع كاملة من سفر أشعياء النبي، المقاطع كانت عبارة عن خطب حماسية؛ لتحفيز يهوذا، وهي مملكة اليهود للصمود والدفاع ضد بطش الآشوريين. وتلك المقاطع مذكورة بالحرف في العهد القديم، بالإضافة إلى التمكن الشديد من اللغة الآرامية؛ مما يجعلني أخمن أن ذلك الشيء عاصر تلك الحقبة الزمنية، أثناء هجوم آشور وملكها على مملكة الرب بأورشليم.

وما الذي جعلك تعتقد أنه قويًّا لهذه الدرجة؟ سأله الشيخ:

ببساطة؛ لأنه يتلو من العهد القديم، أي شيطان كان ليخشى، بل ويتالم من تلك الكلمات المقدسة، بدلًا من أن يحفظها، بل ويرددها على مسامعنا، ولذلك لا أعتقد أنه سيجري معه طقس الاستخراج.

ولماذا من الأساس دخل جسد هذا الطفل البريء؟

لا أدري يبدو أن في الأمر سرًا، أو ربما أجبره أحد أو شيء ما على هذا.

تساءلت دولت: ماذا تعني؟

هنا أجابها الشيخ عبد النبي: يا سيدتي هذه الكائنات أقوام مثلنا، فمنهم المؤمنون، ومنهم دون ذلك، كانوا طرائق قددًا، أي أديان ومذاهب متفرقة فيهم المؤمن، وفيهم الكافر. فيهم القوي وفيهم الضعيف، فيهم الحاكم العادل والمجرم الظالم الذي يتحكم بالآخرين، وفي ذلك العالم الغريب الأمور لا تجري بنفس المنطق الذي تحدث به في عالم البشر، فلا تعتمدي على المنطق كثيرًا في التفسير، المهم أن نخلص جسد الطفل الطاهر من هذا الكيان المدنس في أسرع وقت قبل أن يصبح الخلاص مستحيلًا، هناك مرحلة في الاستحواذ إذا بلغها الشيطان، فلقد ملك الجسد المستحوذ عليه، وفقدنا تمامًا القدرة على استعادته.

قاطع حديثهم صرخة مدوية، وصوت زجاج يتحطم بالأعلى، نظر ثلاثتهم في آن واحد لأعلى، ثم أخذوا يركضون لأعلى السلم، كان الشيخ عبد النبي هو أول من دلف للداخل، وعلى ضوء الغرفة المهتز، ورائحة القيء الشنيعة رأى الطفل ساجدًا على الأرض يلتهم قطعًا من الزجاج المهشم من النافذة بجواره، قطب جبينه اشمئزازًا،

ولكنه أسرع ليمسك بالصبي، وساعده القس في رفعه، طلبا من دولت حبلًا؛ لكي يقيدوه للسرير، كانت الدماء تغطي فمه، وتسيل من شفتيه، حاول الرجلان فتح فيه بصعوبة لإخراج الزجاج المتجمع به.

أحضرت دولت الحبل، أعطتهم إياه بأيدٍ مرتعشة، وهي تقول: أرى أنه من الأفضل أن نذهب به للمستشفى، في حين أجابها الشيخ: ماذا ستفعل له المستشفى، هذا ليس مرضًا طبيعيًّا؛ مما يُصاب به البشر يا سيدتي.

كانت فاتن قد دخلت الغرفة على استحياء، يقودها فضول عارم وقلق شديد على طفل كان يناديها بأمي منذ أيام قليلة، وما أن رأتهم، وهما يقيدوه، والدماء تملأ فيه، وتسيل من شدقيه؛ حتى تمسكت بذراع دولت منتحبة؛ أرجوك. أرجوك يا سيدتي، فلنذهب به للطبيب، فلنذهب لأي مستشفى.

لم تجبها دولت، وإن ظلت عيناها محدقة بالطفل الذي كان يحاول جاهدًا الخلاص من القيد، وحين انتهيا من تقييده، بدأ يزوم ويبصق الدماء عليهما، حرك لسانه المجروح في حركات مقززة، كان يبدو جليًّا أنه لا يشعر بالألم أو أن دماغه كانت في واد آخر بعيد، عندما توقف فجأة وابتسم، ثم أخذ يبكي، وينتحب، ويتألم من فمه المجروح، ثم عاد يزمجر مرة أخرى، وبدأ يحرك شفتيه، قائلًا: سوف أقتلكم، لن أترككم، أنا ربكم وأنتم العبيد. حينها شرع الشيخ ثانية في قراءة القرآن، بينما رسم

القس الكثير من الصلبان بالهواء، حينها عادت الرجفة لجسده ثانية، ثم بدأ يتقيأ، بدا في حال يرثى لها، وهو يبكي ويستجدي دولت، ثم فاتن؛ قائلًا: أمي فاتن؛ دعيهم يتوقفون، أرجوك دعيهم يتوقفون، كانت فاتن بالفعل ترتجف والدموع تغطي عينيها، ولا تستطيع أن تبعدهما عن آدم، تتشبث بذراع دولت في قوة، وكأنما تستمد من قوتها الصبر والجلد.

بينما شرعت دموع عصية تسيل من جفني دولت بلا صوت، قلبها الرحيم يهتز مع كلمات الصبي وهو يستجديهما لينقذوه، وكأنما لمح الشيخ ما يحاول الصبي أن يخلق من رحمة في قلب الامرأتين، فاقترب بوجهه منه قائلًا: انظر لي أنا يا عدو الله، قد تستطيع أن تخدع الرجل، ولكن لا يمكنك أبدًا أن تخدع الله، ساعده القس، قائلًا: بقوة وقد رفع صليبه في وجه الغلام: أنا أرفضك باسم الرب، أنا أنبذك باسمه.

كوني معنا يا ملائكة السماء، نظر الشيخ جهة الامرأتين، قائلًا: صُمَّا آذانكما، الشيطان معروف بألاعيبه، سيبحث داخل قلبك، سيستخدم أي شيء يستطيع إيجاده ضدك؛ ليوهن عزيمتك، ويتفوق عليك. فلا تستمعا لإغوائه. أخرجا أو أديرا ظهريكما لفتنته، هنا صاح الصبي ثانية: أمي فاتن أنقذيني أرجوك.

لم تملك فاتن مشاعرها، أخذ قلبها يرتجف كعصفور

في ليلة شتاء قارصة، كانت تنظر للأرض بعيدًا، فرفعت عينيها؛ لتنظر لعيني آدم، في حين ارتفع صوت الشيخ ثانية: لن تفلح أيها الشيطان هذه المرة هي نهايتك، سوف نخلص هذا الجسد البريء من سمومك، ثم استكملا طقوسهما في الاستخراج، خمس دقائق كاملة، والطفل يهذي ويفيق ويستنجد أحيانًا بالامرأتين، وأحيانًا بالرجلين، وأحيانًا بالرب ذاته، حتى سكنت حركته تمامًا، وهبط صوت تنفسه، اقترب القس يتحسس نبضه، فجحظت عيناه في وجل، لم يدرِ ماذا يفعل؟ بينما أخذت فاتن تصرخ بقوة أغلب الأطفال بالدار استيقظوا على صوتها، لم تستطع أن تتحمل أكثر من هذا فتركت يد دولت وركضت تجاه الطفل، جعلت تحتضنه بصدرها، تربت على شعره.

حاول الشيخ إبعادها، ولكنها كانت كالنمرة الشرسة التي اختطف أحدهم أبناءها، حاولت إفاقة الصبي، ثم أخذت تفك قيده، وهم جميعًا واقفون لا يملكون حراكًا، صرخت في دولت بقوة، اطلبي الإسعاف. اطلبي الإسعاف بسرعة، أفاقت دولت من وجومها على صرخات فاتن، فأسرعت للأسفل؛ لتنفيذ ما طلبت، في حين جعلت الأولى تحاول أن تتذكر ما تعلمت في دورات الإنعاش القلبي الرئوي التي تعلمتها مسبقًا، بدأت تضغط بكلتا يديها على صدر الطفل، ثم تعود لتنفخ الهواء في فيه الدامي، لم يخفها منظر الزجاج ولا الدماء المتجمعة على شفته، ولم يؤذها

طعمها المعدني الرهيب، كانت كل ما تفكر فيه الآن هو عودة الروح لهذا الجسد الصغير المنهك.

وقف الرجلان يراقبان عن كثب، بالطبع كانا يعلمان ما تحمله جلسات الاستخراج والتطهير تلك من مخاطر، أهمها بالطبع، هو موت الشخص المستحوذ عليه، فبعض الشياطين عندما يشعرون بفقدان السيطرة يلجأون إلى وسائل قذرة، مثل: الخروج من عين أو رأس المريض، وبعضهم الآخر يقوم بخنقه أو ذبحه.

كانا يشعران بالأسى الشديد على هذا الطفل الذي لم يستطعا أن ينقذاه، كان واضحًا بمكان أنه قد أسلم الروح. فقط فاتن لم تيأس بل ظلت تحاول، وتحاول، جعلت تعيد مرارًا وتكرارًا محاولاتها المستميتة في إنعاش الصبي، نصف ساعة كاملة لم تيأس حتى جاء رجال الإسعاف، طمأنوها أن الصبي ما زال حيًّا، بفضل ما صنعته. حملوه بسرعة للسيارة وتوجهوا به للمشفى العام.

الفصل السادس

الحقيقة

2016

من جديد ظهرت تلك المرأة المخيفة المتشحة بالسواد ذات صوت كصرير باب حجري قديم، كعزف صراصير الحقل في ليلة صيفية قرب الزراعات، أراها بوضوح تقترب نحوي باسطة ذراعيها، رباه ألن يأتي اليوم الذي أتخلص فيه من هذا الحلم الرهيب، وددت لو توقفت عن الهروب منها ومواجهتها ولكن شيئًا ما يمنعني لا أدري ما هو، وجهها القبيح، ابتسامتها المرعبة ربما، رحت أركض في تلك المتاهة وأكرر نفس الأخطاء الحمقاء ككل مرة، تساءلت ثانية: لماذا لا يسرع هذا الحلم ويأتي بالنهاية، وكأنه الحلم قد شعر بي، فوجدتني أسقط بالفعل في جُب عميق، سقوط حر، رباه أنا لا أفيق ككل مرة، المفترض أني أفقت الآن أو على أسوأ تقدير عليّ أن ارتطم بقاع؛ فتنشق رأسي، وتنتهي المعاناة.

إن هذا السقوط الحر الطويل مؤلم بحق، لا بُدَّ أن هناك ثمة خطأ بالأمر. وفجأة أفقت على حلبة القتال الرومانية، أرض صخرية حمراء، وكأنما انعكس لون الرمال على السماء فصبغها بلونه، تلك الأمطار الحمضية القاتلة التي تذيب الجلود في ثوان، حركت رأسي مرتين أريد أن أفيق،

ليس هكذا تجري الأمور، ما دخل الحلم المخيف الذي تعودت عليه بتلك النوبات، الأمر أصبح خطرًا بحق.

ثم سمعت صوته: كفحيح آلاف الأفاعي ذات الجرس، نهايات جمله لها رنين بالفعل، بالضبط كما أم جُنيب، يسمونها في سيناء بالطريشة، والعرب أسموها أم جُنيب، أتدرون لماذا؟ لأنها عندما تتحرك، تتلوى بشكل جانبي، لا يضاهيها فيه نوع آخر من الحيات.

الأوروبيون لقبوها بالحية المقرنة، وفي الأساطير الموروثة والثقافات الشعبية صوروها بالشيطان، ولكن وجهه لم يكن وجه حية مقرنة، لقد احتفظ بذات وجهه القديم وجه ذئب، علا فحيحه، قائلا: ما زلت تقاوم.

اختفى فجأة من أمامي، وخفت صوته، وتعالت صيحات الجموع الغاضبة والمتعطشة للدماء بالطبع دمي أنا.

رحت أجول بعيني بحثًا عنه، ألوح بسيفي القصير مزدوج الشفرات في الهواء، وفجأة وعلى حين غرة سمعت صوته من خلفي، التفت بسرعة البرق، ولكنه كان أسرع مني، لقد غرز أنيابه هذه المرة في كتفي، فسقط الرمح من يدي، ثم همس بفحيح في أذني: أستطيع أن أقتلك في ثوان، أن اعتصرك كما تعتصر الحية فأرًا صغيرًا باسلًا، يظن أن باستطاعته لي الحديد، يا صديقي أنت ضعيف..

حاولت لأول مرة استخدام مهاراتي كطبيب نفسي، تلك

المرة لم أتعاطَ الدواء، وكنت شبه يائس من الخلاص، أليس هناك أقوى ممن ليس لديه شيء كي يخسره؟

لم أقلها، لم تنبس شفتاي ببنت شفة، ولكنه قرأ كل ما يجول بخاطري، فقال: بالعكس أنت تملك الكثير لتخسره.

ثم هوى بقبضته المجنزرة على صدغي، تلك الدبابة الألمانية قد توقف الجيش النازي عن إنتاجها منذ زمن، لماذا تصر على أن تحطم فكي؟ بالفعل تهشم فكي، وطار جسدي عشرات الأمتار، ألم شديد يكتنف رأسي، بينما يتحرك هو بثقة نحوي، هل يتحرك حركة جانبية بالفعل، أما أنا أهذي، الضربة كانت قوية بصدق لم أستطع أن أحرك شفتاي هذه المرة، ولكنه قرأ ما أردت قوله في ذهني: من أنت؟

فأجاب: أنا ربكم الأعلى.

غمغمت: أستغفر الله العظيم.

أليس ربك بقادر على أن يحيي الموتى، أنا أحيي وأميت.

ضحكت رغمًا عني.

لقد سبقك بها الكثير من الكفار على مر العصور يا هذا.

أنا أعظم المخلوقات، أما أنتم فاردأها، لا أعلم، لماذا يصر على أن يجعل منكم شيئًا، أحببته، ولكنه أخرجني من رحمته، لماذا؟؛ لأني أشفقت عليكم، أخبرته أنكم ضعفاء.

وفي الأخير، تتهمونني بالشر والخيانة، ثم استطرد: تعلم سوف أقص عليك قصة لطيفة.

"استيقظ المصريون القدماء ذات يوم كئيب؛ ليجدوا جميع أطفالهم أمواتًا في مهدهم، وقد سُرقت أنفاسهم، من قبل خالق منتقم، أتعلم ماذا فعلوا؟"، وبدأ يزمجر، والدماء تتطاير من بين أنيابه؛ اتهموني أنا بقتلهم، شوهوا صورتي وسمعتي.

أتعرف يا صديقي؛ ربك الذي تعشقه وتتعبد بمحرابه، قد أخذ أرواحًا أكثر بكثير مما فعلت، حتى الأرواح التي أزهقتها، كان كله بعلمه وبمشيئته. وفي الأخير: أنا السيئ، وهو اللطيف الخبير، أليس كذلك؟

بدأت كلماته وأفكاره المضطربة تتلألأ في ذهني، كما تتلألأ حبات اللؤلؤ المنثور، أخذت بعض الأفكار تترابط بهدوء رغم جلال الموقف، بدأت أستعيد بعض صلابتي، لاحظت أني بصدد مريض نفسي على أعلى طراز، مصاب بذهان العظمة، جنون الاضطهاد.

حاولت التجاوب معه؛ لأكسب بعض الوقت: ولكنك لا تحزن إذا قلت لك: مخادع، شرير، إن الأوامر الإلهية لا تعارض يا هذا.

هذا يسري عليكم أنتم، أوامره تسري عليكم أنتم، أما أنا فلا، أتعلم لماذا؟ لأنكم عبيد.

كان قد اقترب كثيرًا من جسدي، أطل عليّ بوجهه المذؤوب من ارتفاع وأمسك بحربته مصوبًا إياها لصدري: أجبني الآن، من الذي يمنعك مني؟

أخذت أفكر بسرعة، بينما أحكم هو قبضته على رمحه، استعدادًا للذبح، عندما نطقت: هو الله، ارتجف الرمح في يده، وتوقفت السماء النارية عن عزف مقطوعتها من الأمطار، بينما شرعت سحب بيضاء ناصعة تظهر في صفحة السماء، ارتجت الأرض تحت قدمه، وحاول الصمود واقفًا، ولكني لم أحظ بشرف مشاهدة هذه اللحظة؛ حيث أراد النوم أن يفارقني، ووجدتني جالسًا أنتفض على سريري، وعرق بارد يملأ جسدي ومنامتي، ألم شديد يكتنف رأسي، تحاملت على نفسي بصعوبة ووقفت أمام المرآة لأرى تلك الكدمة الزرقاء بصدغي، وتلك العلامات بكتفي الأيسر، وكأنها آثار أنياب.

***

عصفت السماء بماء منهمر في غير أوانه بالمرة، فالفصل صيف، ونادرًا ما تمطر، شعرت فاتن أن السماء كانت تبكي معها على طفلها، اختلطت دموعها مع قطرات المياه التي تنهمر عليها من السماء، فلم تعد تعي أيها دموعها؟ وأيها يأتي من السماء؟ لم تكن تتخيل أنها تحبه بهذا الشكل، كانت تحب كل الأطفال، ولكن من الواضح أن آدم كان متربعًا على عرش قلبها، منذ أن أنزلوه من سيارة الإسعاف؛ حيث أبت ألا تفارقه؛ حتى يصل المستشفى، ظلت هي واقفة بمكانها بالخارج أمام مبنى المستشفى تدعو ربها، وتناجيه؛ ليشفيه ويصرف عنه ما هو فيه.

أخذت تتذكر كل ما حدث، حتى عندما زادت الأمطار حدتها، لم تشعر بأي شيء؛ حتى وصلت دولت بسيارة بولس نزلت الأخيرة من السيارة بسرعة، وجذبتها من ذراعها لداخل مبنى المستشفى، كان جسدها كله يرتجف، ملابسها كلها مبللة، طلبت لها دولت غطاء؛ ليقيها من البرد، دثرتها به وربتت على كتفيها، لم أكن أعلم إنك قوية بهذا الشكل، لقد أنقذته يا فاتن، لقد أنقذته، رفعت ببطء عينيها المغروقتين بالدموع في عيني مديرتها، وتحدثت كثيرًا بدون كلام.

جلست الاثنتان تتمسكان بأيدي بعضهما بعضًا، بينما جلس الشيخ والقس في أقصى صالة الاستقبال بالمستشفى

يدعوان الله للطفل بالشفاء علهما يستكملان علاجه بعدما ألم به، ساعة كاملة مرت وقرب أذان الفجر، خرج عليهم الطبيب ترافقه الممرضة، أخبرهم الكثير من المصطلحات الطبية، التي لم يستوعبوها، فقط كلمة واحدة هي التي توقفوا لديها كثيرًا "ورم بالمخ" حدقت دولت بعينيه، في حين تمسكت فاتن بذراعه في جذع رهيب، ماذا؟؟

نعم، للأسف الطفل مصاب بورم في الفص الصدغي للمخ، وهذا ما بينته الأشعة، سوف نجري العديد من الفحوص قبل أن نقرر صلاحيته لإجراء عملية استئصال، هرع الشيخ عبد النبي، والقس إلى الطبيب؛ ليتسائلا مبهورين؛ تقول ورم بالمخ أيها الطبيب، بالله عليك أخبرني ما هي أعراضه؟ كان هذا الشيخ عبد النبي.

تنحنح الطبيب، وكأنه بصدد إلقاء محاضرة علمية عن أورام الدماغ، ولكنة اكتفى بأن أجاب باقتضاب: أورام الدماغ تختلف في أعراضها حسب كل نوع، فبعضها يسبب تغير حاد في الشخصية، وبعضها الآخر يؤثر على الحواس ومراكز الاحساس والشعور، ولكن أغلبهم يتفق في أعراض زيادة ضغط الدماغ، وهي: قيء مستمر للخارج، اضطراب في الوعي، وإغماءات متكررة. هناك حالة نادرة مرت عليّ كان المصاب فيها مُصرًا على أنه نبي منزل من السماء، مريض آخر أخذ يتحدث باللغة اللاتينية الإسبانية، والتي لم يتعلمها مطلقًا بطلاقة مذهلة وبشكل محير للأذهان، أما إذا

أصاب الورم جذع المخ أو ضغط على مركز شديد الحيوية به، كمراكز التنفس وضبط معدلات الضغط والحرارة، فإن المريض يعاني من موت دماغي في الحال.

تساءل بولس هذه المرة: وماذا إذا أصاب الورم إحدى المراكز الخاصة بالإدراك؟

فكر الطبيب كثيرًا، ثم أجاب: وقتها يصبح المريض مخلوقًا آخر، الله وحده يدري ما سيكون عليه.

أومأ القس برأسه موافقًا: وهو ينظر بطرف خفي لصديقه عبد النبي.

نظر الجميع لبعضهم بعضًا، بينما تشبثت فاتن بيد الطبيب متوسلة: أرجوك يا سيدي، أخبرني هل هناك أمل في الشفاء؟

نكس الطبيب رأسه بالأرض، وتظاهر بحرفية مهنية لا يمتلكها، وأجاب: العلم والطب جعلا كل شيء ممكنًا، ولكن، وصمت هنيهة، ثم غلبت عليه إنسانيته، فقال: ولكن الأمر صعب، في أي لحظة قد يتوقف الدماغ، بل إنه من الممكن أن يكون إجراء العملية مستحيل إذا أصاب الورم جزءًا حيويًّا تستحيل إزالته، لقد أخبروني يا سيدتي ما قمت به من مساعدته، ولولا ما فعلته؛ لتوقف ضخ الأكسجين إلى دماغه، ولمات في الحال. الأمر صعب، وحياته بيد الله وحده، وكلنا أسباب، باختصار شديد يا سادة؛ أنصحكم

بالدعاء.

تركهم الطبيب تتخبطهم نيران الألم والحسرة، وهل لو كانوا علموا بهذا التشخيص مسبقًا؛ لقاموا بما قاموا به؟ أخذوا يسترجعون شريط الذكريات من بداية إصابته حتى نقله للمستشفى، هل قصروا في حق هذا الملاك الصغير؟ كفاه ما قد ألمّ به؛ حتى يزيدوا هم آلامه وأوجاعه بأفعالهم، جعل الشيخ يبكي بصدق، يؤازره القس، ويحتضنه، بينما صاحت فاتن لا تيأسوا من روح الله، أنا واثقة أنه سيعود، قلبي يحدثني أنه سيعود، وقلبي لم يخذلني مسبقًا.

***

يغط أدهم في ثبات عميق في حجرته بالمستشفى، بينما تجلس والدته على الكرسي بجواره، تمسك بإحدي القصص التي كانت تحكي له منها وقد غلب عليها النعاس على وضعيتها.

بينما وقف الدكتور أحمد

بجوار صديقه خارج الغرفة يتأملان الطفل، ووالدته عبر الزجاج الشفاف، ابتدره أحمد: ما زلت لا أستوعب كلمة واحدة مما تقول.

وأنا مثلك تمامًا، الأمر برمته عجيب

حرك أحمد رأسه، وكأنه ينفض عن ذهنه همًّا ثقيلًا:

- أمه؟! أمه، لبنى تفعل كل هذا!

- نعم، ولابد من مواجهتها بالأمر في حضور زوجها، هذه السيدة ليست أمينة على الطفل، ولابد أن يعلم زوجها كل شيء.

خبط أحمد رأسه بيديه: لا أستطيع أن أصدق ما تقول.

يا عزيزي: الماء يكذب الغطاس، ما هي إلا دقائق وسنعلن الحقيقة كاملة عندما يحضر زوجها. لقد شككت من البداية أنه ثمة شيء غير طبيعي بالرواية، ولكن الأعراض على الطفل كانت قوية وشبه صادقة، والمرض

النفسي يا عزيزي، يقترب كثيرًا جدًّا من أمور اللبس هذه لدرجة التماس في نقاط شتى، لطالما اعتقد الباحثون في المخ البشري مرض الصرع على أنه مس من الشيطان حتى وقت قريب، وذهب بعضهم إلى أن الإصابة بأمراض الدماغ، خاصة التي تؤثر على الشخصية لهو نوع صريح من أنواع اللبس الشيطاني، بالطبع تمت مهاجمته والنيل منه، ولكن الأمر يظل مثارًا للجدل؛ حتى لحظتنا هذه.

أمسك أحمد بالملف الطبي والتحاليل، وأخذ يراجعها في استنكار شديد.

عندما رأيا الأب يخرج من المصعد متجهًا ناحيتهما. من الواضح أنه قد خرج لتوه من عمله، فقد بدأ متأنقًا كعادته يرتدي بذلة كاملة وربطة عنق حريرية.

اقترب الرجل منهما، وألقى عليهما السلام، متسائلًا:

- خيرًا إن شاء الله يا دكتور، أحدث شيء؟ لقد أفزعني اتصالك، خصوصًا أن كلماتك كانت غامضة، هل هناك شيطانًا بالفعل يسكن ولدي.

ابتسما إليه ابتسامة اطمئنان، ثم طلبا منه الدخول معهما للاطمئنان على آدهم، دلف الثلاثة غرفة الطفل وتنحنح أحمد، فأفاقت السيدة لبنى من غفوتها، نظرت إليهم، فرأت زوجها فبش وجهها كثيرًا، عندما فاجأها الطبيب قائلًا: أعتقد أن تربية طفلك وحدك في غياب أبيه مهمة شاقة جدًّا

يا سيدة لبنى، نكست رأسها في خجل، ثم نظرت بطرف عينيها نظرة خفية تجاه زوجها الشارد، وتنهدت بدون إجابة.

ألا تعتقدي معي يا سيدتي أن الوضع سيكون أفضل كثيرًا

لو عدتم لسابق عهدكم أسرة واحدة مترابطة؟ أومأت برأسها في حين فرت عبرة حقيقية من عينيها لم تحاول إخفاءها، في حين اضطرب الزوج كثيرًا، وأسرع يقول: أنا على استعداد لفعل أي شيء؛ حتى يعود ولدي طبيعيًّا.

استوقفه الطبيب قائلًا: مهلًا يا عزيزي، إن الحالة التي نحن بصددها الآن لفريدة من نوعها، لا أخفيكم أنه تم خداعي أنا شخصيًا، ولكن في البداية فقط.

الطفل يؤتي أفعالًا عجيبة يتحدث بلسان غريب، الطفل نفسه شبه متأكد أن هناك شيطانًا يسكن بداخله، والدته تؤكد على كل الشواهد، وأكثر في حين لم نر منها نحن غير طفل مضطرب ذهنيًا يقوم بسبنا وينهار، ولكني محترف في تلك الأمور، أصررت أن أسير في المجرى الطبيعي وبطريقة أكاديمية للغاية لقطع الشك باليقين، أنتم لا تعلمون أضرار علاج مريض ذهان كملبوس من الشياطين، لا تستطيعون أن تتخيلوا كم العذاب الذي قد يحدث؛ لذا فقد كان لزامًا عليّ أن أتأكد، وأجريت الفحوص، والحق أقول لكم، وبكل صدق: أني وجدت كل الأشعة سليمة، وعندها انهارت كل النظريات التي فرضتها، عن إصابة الطفل بأحد أورام

الدماغ، أو أي نزيف داخلي. لا قدر الله. وعندما جاءت نتائج الفحوصات سلبية، طلبت لقاءه للمرة الثانية، وللمرة الثانية يتم خداعي بمنتهى الحرفية. أتدرون لماذا يا سادة؟

تعلقت كل العيون بشفتيه، وهو يقول:

لأن من طلب مساعدتي هو نفس الشخص الذي خدعني، فلم أشك فيه ولو لوهلة، نظر الجميع لبعضهم بعضًا، بينما جعلت لبنى تحرك يديها على شعرها في حركات عصبية، كانت خطة شديدة الذكاء تقترب من الكمال، ولكن لا بُدَّ من خطأ يرتكبه الجاني؛ حتى توضع الأمور في نصابها.

عندما أرسلت الممرضة في المرة الأولى لسحب عينة من دم أدهم، أفادت بأن أوردته كلها كانت ضامرة، ولم تستطع سحب العينة، ولكن الأمر لم يمر عليّ مر الكرام، فلقد استفسرت عن مهارة ممرضة مرسلة من مستشفى خاص لسحب عينة دماء، وفي الأخير تعود خالية الوفاض؛ لتخبرنا قصة عن ضمور الأوردة، إذًا الممرضة المحترفة لم تستطع أن تؤدي الوظيفة الوحيدة التي تجيدها بكل أريحية. وعندما استفسرت علمت أنها ممرضة مخضرمة، أخصائية في سحب العينات من الأطفال، وعندما واجهتها مهددًا إياها بالفصل من الخدمة لضعفها في أداء مهمتها، اعترفت وثارت لكرامتها، من قال إني لم أستطع سحب العينة، إن السيدة والدة الطفل كانت متحفظة جدًّا، وخشيت كثيرًا على ولدها، أكدت لي أن الطفل ليس مريضًا، وأنه يخاف

ويرتعب من الحقن، وأعطتني مبلغًا من المال؛ لأدعي كذبًا أني لم أجد وريدًا.

يجوز أن تكون السيدة لبنى خائفة على ولدها من المحقن؛ لكي لا يؤلمه، يجوز أيضًا أنها رفضت تمامًا حضوره للمستشفى؛ لأنها تخشى عليه من الهواء، ولم توافق إلا عندما وعدتها أنها ستأتي معه.

إلى هنا يا سادة قد تبدو كل الأمور منطقية، ولكن عندما أحضرنا الطفل للمستشفى، وعندما أجرينا له فحص الدم الذي حالت والدته دون إجرائه، اكتشفنا فقر دم شديد بالفعل، كما اعتقدنا من البداية، صفائح دموية منهارة، صورة طبية لا تحدث إلا لأصحاب أمراض الدم الخبيثة، وهو ما لم يثبت بالتحاليل، وفي غفلة من السيدة لبنى استطعت أن أحصل على عينة من ذلك العصير أو الشراب السحري الذي تصر على إطعام ولدها منه، وبتحليله وجدنا أنه يحتوي على العديد من العقاقير المسيلة للدماء، بعض حبوب الهلوثة lsd، بالإضافة إلى عقار الأيميتين، والذي يسبب القيء المستمر.

أتدرون يا سادة معنى أن تحرم طفلك من أطعمة بعينها، وتعطيه بيدك أدوية للهلوثة، بل وتملأ رأسه بضلالات؛ لتخدم مخططك؟ جعلت تملأ ذهنه الهش برواياتها عن ذلك الوحش الخفي الذي يختبئ خلف لسانه ويسحق رأسه وبأنه ملبوس، ويتغذى على روحه. من الواضح أن السيدة قد

قرأت الكثير عن أعمالنا.

كانت لبنى تستمع كل هذا إلى حوار الطبيب. تحبس دموعها حتى بلغ تلك النقطة فصاحت به: اخرس. اخرس. أنا لم أؤذِ طفلي. مستحيل أن أؤذي طفلي، ولماذا أفعل ذلك؟

ابتسم مشيرًا إلى زوجها، حتى تنالي تعاطف زوجك وحبيبك الذي لم تتحملي فكرة ابتعاده عنك. لقد تبلورت الفكرة في ذهنك يوم علمت أنه بصدد الزواج من أخرى. صدقيني يا سيدتي أنا لست ضد لم شمل الأسرة من جديد. ولكن بالتأكيد ليس بتلك الطريقة الشنيعة، سيدتي أنت بحاجة لعلاج.

انهارت السيدة، وأخذت تصرخ، والدموع تغرق وجهها، حاولت مهاجمة الطبيب، ولكن زوجها وأدهم حالا دون ذلك.

في حين أكمل هو حديثه: لا أستطيع أن أنكر أني صدقت الخدعة، ولكن الكذب ليس له قدمان، خلال أيام بإذن الله سيتم سحب تلك المواد الكيميائية المدمرة من دم الطفل، وسيشفى تمامًا بإذن الله، وإن كنت أعتقد أنه سيكون بحاجة لبعض جلسات الدعم النفسي بسبب ما جرى، أنا سأخرج الآن، وسأترككم معًا؛ لتقرروا كيف سيتم التعامل مع هذا الوضع، ولكني لا أئتمن تلك السيدة على الطفل حتى يتم شفاؤها.

الفصل السابع
مفاجأة

1977

روائح المطهرات تزكم الأنوف، والنافذة الوحيدة الموجودة بالغرفة مغلقة، وبالرغم من أن الوقت صباحًا، إلا أن الجو بالخارج كانت ممتلئ بالأتربة، في حين اصطبغت السماء بلون أحمر قاني؛ مما جعل الغرفة تقريبا شبه مظلمة.

جلست فاتن على سرير آدم داخل تلك الحجرة بالمستشفى، كانت تحتضنه بالرغم من غيابه التام عن الوعي، لقد أخبرهم الطبيب أن الورم الدماغي بفضل من الله لم يصب جزءًا حيويًّا من الدماغ، وهذا يعني ببساطة أنه بالإمكان إزالته، ولكن تبقى الخطورة كما هي، فتلك عملية بالدماغ، لإزالة ورم بالمخ، وليست نزهة صيفية، المضاعفات شتى، لا توجد أية ضمانات، وبالرغم من كل هذا كان إيمانها قويًّا، كان هناك شيء بداخلها يطمئنها أن آدم سوف يعود.

منذ تلك الليلة التي لن تنساها طيلة حياتها، تركت العمل بالدار، وكرست حياتها للاهتمام بآدم، لم تفارقه إلا ساعات ضئيلة كان تعود فيها لزوجها لقضاء احتياجاته، ولكنها كانت تسرع عائدة للمستشفى، شهر كامل، وهي على تلك الحال، بلا يقين، ولكنه الأمل.

الكل أكد لها أن عمليات المخ غالبًا ما تبوء بالفشل، بل إن الناجين منها قد يعانون مدى الحياة شللًا أو ضعفًا حادًا في الجهاز العصبي، أو في أحد الحواس، ولكن كل ذلك لا يهم، فليبق حيًّا، وليكن بعدها ما يكون.

كان هذا هو اليوم المرتقب للعملية، فوجئت بدقات رقيقة على باب الغرفة فأذنت للطارق بالدخول، كانت السيدة دولت، وبصحبتها طفلان من أصدقاء آدم بالدار، بالطبع تعرفهما فاتن، ركضت عليها فاتن مسرعة بينما احتضنتها دولت بقوة، كانت دموعها سريعة، ولكن سرعان ما جففتها، أشارت دولت للطفلين، سمر وأمجد، قائلة: أصرا على القدوم معي اليوم عندما علما أنه موعد إجراء العملية، ولم أستطع أن أمنعهما، وخفضت صوتها قائلة: لم أكن لأتحمل حرمانها من رؤيته قبل...

وقطع كلامها دخول الممرضة التي شرعت تقيس العلامات الحيوية، أجلستهم فاتن، بينما عادت هي لتجلس بجوار آدم وتحتضنه، طمأنتها الممرضة مخبرة إياها أن الأمور على ما يرام، وهم في انتظار حضور الطبيب، ثوان ودخل عليهم محييًّا، ابتسم في وجوههم نظر الممرضة التي أخبرته بالعلامات الحيوية للصبي، وأردف هو: بإذن الله سيتعافى، العملية قد تستدعي الكثير من الوقت، وليس على أن أحذركم ثانية أنه لا توجد أي ضمانات، وليس أمامكم غير الدعاء.

اومأ الجميع، بينما لم تستطع فاتن أن تحبس دموعها أكثر ففاضت رغمًا عنها، فوجد الطفلان الآخران نفسيهما يبكيان رغمًا عنهما، أخذت سمر تلامس أنامل آدم، وكأنها تعتذر عما سببته له من ضيق في يوم من الأيام، كان لسان حالها، يقول: سامحني لم أكن أعلم.

أعطي الطبيب أوامره للممرضة بتحضير المريض، وأخبرهم أنه سينتظر بالأسفل بغرفة العمليات، بدأ جسد فاتن يرتجف، وهي تحتضن رأس آدم في صدرها، وتمسك يده بكلتا يديها، وكأنها تخشى أن تتركه فتفقده، ولكنها شعرت بقبضته الصغيرة تطبق على كفها، اتسعت عيناها ونظرت إلى يده الصغيرة، فوجدته بالفعل يطبق بكفه على كفها، حملت يده وقبلتها وسط دموعها، عندما فتح الطفل عينيه ببطء شديد، نظر حوله مبتسمًا، ثم وضع يده على بطن فاتن، وتحركت شفتاه بأحرف مهتزة: "لقد أراد الله أن يمنحك هدية".

اقتربت بأذنها من فمه؛ لتتأكد مما قال، ولكنه كان قد أغمض عينيه ثانية وغاب في سباته الطويل.

***

كانت السماء محملة بالكثير من السحب، بينما شرعت الشمس تختلس من بينها النظرات، اشتد المطر كثيرًا عما كان عليه منذ الأمس، وبدا وكأنه جاء ليبقى طويلًا، ارتفع منسوب المياه بالشوارع لدرجة لا بأس بها، وانبعث الدخان في تلك اللحظة من سيجارة يده، واختلط ببخار قهوته، أخذ يراقب المارة من بعيد عبر النافذة الزجاجية العريضة لمقهاه الذي تعود أن يرتاده منذ زمن.

- أراك لم تَعد تسعل، هل عدت ثانية للتدخين يا صديقي؟

جاء السؤال على لسان صديقه أحمد

ابتسم، ولمعت عيناه البنيتان، ووضع السيجارة من يده، تحركت شفتاه بينما ظلت عيناه مثبتتان على المارة بالخارج، تعلم يا صديقي أجمل ما في الصباح؟

نظر إليه أحمد مستفسرًا!

فأكمل: أنه يعطيك الأمل. كل صباح يعطيك أملًا جديدًا، وكأنها حياة جديدة قد تم منحها لك لتبدأ من جديد.

ارتشف أحمد رشفه من قهوته، وقال متهكمًا: لا أعلم يا أخي من أين تأتي بكل هذا التفاؤل.

حرك رأسه جهة صديقه، وحدق بعينيه: تذكر يا صديقي تلك القصة التي أخبرتك بها قديمًا عن تلك الحالة المصابة

بورم الدماغ، والتي رأيتها بنفسي. ذلك الطفل كان مصابًا بورم حميد بالفص الصدغي للمخ، طفلًا يتيمًا فقد والديه، وتم تربيته بدار للإيواء، ثم يشاء الله أن يصاب بورم في الدماغ، هل هناك أشد بؤسًا من هذا؟

لم ينتظر إجابة صاحبه، ولكنه أكمل: ذلك الطفل كانت تصيبه نوبات صرع شديدة، ومن الواضح بمكان أن الورم أثر على بعض مراكز التحكم بالمخ والخاصة بالشخصية والإدراك، هذا الطفل كان يسرد مقاطع كاملة من التوراة "العهد القديم" على لسان أشعياء النبي، مقاطع تم سردها منذ آلاف السنين، وبلغة آرامية صحيحة مائة بالمائة كما تحدثها المسيح بالجليل. بالرغم من أن الطفل مسلم الديانة، ولا يفقه حرفًا واحدًا غير العربية، شخصوه بالطبع في البداية بأنه ممسوس؛ لما كان يؤتي من أفعال عجيبة لا تتوافق مع العقل والمنطق، وسقط الطفل في غيبوبة تامة، وكل المؤشرات كانت تنذر بموت قريب.

امرأة واحدة بل امرأتان شعرتا بهذا الطفل، لم تتركاه، بالرغم من أنهما ليستا من أقاربه، مجرد معلمتين بدار الأيتام التي كان نزيلًا بها، شفقتا لحاله، إحداهما تركت كل الدنيا وتشبثت به؛ حتى الأطباء ترددوا كثيرًا في إجراء العملية، فالأمور قد تزداد سوءًا، ولكن من غيرها؛ فإن الموت حتمي.

وفي وسط كل هذا الحزن، تم إجراء العملية، وتم إزالة

الورم، ولدهشة الجميع نجحت العملية، وعاد الطفل من جديد، لم يترك الورم إعاقة ذهنية أو بدنية كما توقع الجميع.

نظر له أحمد متعجبًا: ورم بهذا التأثير المرعب، ويرحل في سلام، وبلا آثار جانبية حتى، هذا ما حدث يا صديقي، باستثناء بعض النوبات التي تصيبه من آن لآخر، فهو شخص طبيعي مائة بالمائة، ثم أشار لصدره قائلًا: ألا تتفق معي أنه سليم؟

قطب أحمد ما بين حاجبيه، ماذا تعني؟؟؟

أشار إلى الجرح القديم الذي ينحدر أعلى جبهته، يغطيه الكثير من شعره الأسود الكثيف، قائلًا: أتريد أن تفحص الجرح بنفسك؟

ظل أحمد محدقًا بوجهه في ذهول، وقد توقفت الكلمات في حلقه؛ ولكن... ولكنك لم تخبرني مسبقًا بأي شيء من هذا، نحن أصدقاء منذ ما يناهز الخمسة عشر عامًا، وأبدًا لم تحكِ لي هذا الأمر، ثم...، ثم ماذا؟

ثم إنك لست يتيمًا يا آدم، فوالدتك أطال الله عمرها ما زالت حية تُرزق.

أمي التي تعلمها، وبالمناسبة أحب أن تدعوها أمي فاتن، ليست السيدة التي أنجبتني، ولكنها الأم التي أحبت ورعت، واحتضنت، وعلمت وخرجت طبيبًا وضابطًا.

أتعني؟!

نعم، كانت أمي هي المشرفة، المعلمة بالدارالتي لم تستطع أن تتركني، تشبثت بي كما تشبثت أنا بالحياة، وتشبثنا سويًا بالأمل، حتى بعدما أنعم الله عليها بولد من رحمها، لم يتغير حبها لي، لم تتبدل مشاعرها، أترى يا صديقي، كم كنت محظوظًا، فمن رحم المرض والعوز، بل والموت تأتي رحمة الله، فتنقلب الآيات، وتنبت من وسط الصخور جنة.

كانت عيناه قد ترغرغت بالدموع عندما توقفت السماء عن النحيب، وصمتت زخات المطر، وكأنها تحتفي معه بتلك الذكرى التي لم تفارقه.

***

عاد من عمله منهكًا في ذلك اليوم، فتح باب الشقة؛ ليجد والدته جالسه بالردهة تتابع التلفاز، ذهب إليها على الفور، جلس بجوارها وقبل يدها، فاحتضنته وربتت على ظهره، بينما اضطجع هو على الأريكة واضعًا رأسه في حجرها، أخذت الأم تداعب خصلات شعره، لامست ذلك الجرح القديم، فابتعدت بيدها سريعًا، ولكنه رفع عينيه بعينيها، أمسك بيديها وقبلها ثانية، أنا لم أنسه يومًا يا أمي، فبدون هذا الجرح لم أكن لأعرفك، لم أكن لأتمتع معك أو مع أبي عليه رحمة الله بتلك الحياة، ذلك الجرح

برأسي هو أعظم شيء حدث لي بالحياة، بدأت الدموع تنهمر من عينيها كأمطار غزيرة، لطالما كانت دموعها قريبة، تحزن تبكي، تفرح أيضًا تبكي، ابتسم هو في وجهها، فقبلت جبينه، قائلة:

بصوت جاهدت؛ ليخرج طبيعيًا من بين دموعها، فلتتحضر؛ لأننا بصدد عشاء مهم الليلة.

نظر لها متسائلًا، فأجابت: أخوك وزوجته سيتعشون معنا الليلة، كما أن هناك ضيفًا عزيزًا لم تره منذ زمن، لم تجعله يفكر كثيرًا، بل أخبرته على الفور أنها السيدة دولت، لقد دعوتها على العشاء، أخبرتني أنها اشتاقت إلينا، وأنها لم ترك منذ أكثر من ستة أشهر كاملة.

أومأ برأسه، ثم اعتدل جالسًا بجوارها، معك حق يا أمي، أنا مقصر تجاهها بشدة، أنا لا أتخيل أن تلك السيدة الرقيقة المرهفة هي نفس الوحش الذي كانوا يروعون به الأطفال في الملجأ.

الأيام يا بني، لا تترك الأمور على حالها. كلنا نحاول أن نداري ضعفنا بقوة وهمية.

أومأ برأسه مؤمنًا، ثم شرد بذهنه بعض الشيء.

أمسكت بوجهه، وحدقت به متسائلة: بماذا تفكر؟

أراهن أن هناك شيئًا مهمًا يشغلك.

أومأ برأسه، نعم يا أمي هناك شيء ما. ثمّة شيء لا يبدو منطقيًّا بالمرة، ولكني لا أريد أن أسلم ذهني ثانية للخزعبلات.

آه، إذًا الأمر يخصُّ تلك الأشياء العجيبة التي تصر أن تهتم بها.

لا، الأمر يخص حالة طفل، كنت أقوم بعلاجه، الحالة تتشابه كثيرًا مع حالتي عندما كنت طفلًا.

تذكرين يا أمي، عندما حاول القس بولس، والشيخ عبد النبي مساعدتي اعتقادًا منهم أني ملبوس.

أومأت في حزن:

- أنا لم أنسَ يومًا حتى أتذكر.

- هناك حالة تتشابه مع حالتي تلك بقوة.

- ولماذا لم تجرِ عليها فحوصاتك؟

كل الفحوصات جاءت طبيعية، ولكن والدته كانت تعطيه بعض الأدوية المهلوثة، كانت تتلاعب بذهنه، حتى يعود والده إليهما.

اتسعت عيْنا الأم التي لم تعرف الرحمة طريقًا ممهدًا آخر غير قلبها؛ أهناك أُمٌّ تفعل هذا؟ أنت متأكد أنها أمه.

كل التأكيد، ولكنها امرأة مريضة يا أمي تحتاج إلى

العلاج.

ولكن يبدو لي أن الأمر قد انتهى، ما الذي يشغلك إذًا؟

رحل بذهنه بعيدًا، وحدق في النافذة التي أمامه، وفي تلك الأمطار التي عادت لتدويَ من جديد، وأجابها لا شيء. لا شيء.

تعجبت والدته، وأدارت رأسه جهتها، ما الذي يحيرك يا ولدي طالما تأكدت أنّ أمه هي التي كانت تفتعل كل هذا.

هناك شيء لا يبدو طبيعيًّا، ذهني لا يتقبله

ما هو؟

عندما كنت أفحص الصبي بمنزلهم أثناء ادّعاء والدته إصابته بالمَسِّ، قال لي جملة لم أستطع أن أنساها، هو في الحقيقة قال جملتين: الأولى هددني بإلقائي في البئر، متوعدًا إياي أني لن أستطيع أن أنجوَ منه هذه المرة.

والثانية عندما مدَّ لي يده، قائلًا: فقط عليك أن تطلب.

وماذا في تلك الخزعبلات؟

الأمر الذي يشغلني يا أمي، بل لا يدعني أنام، أني أحلم بهذين الشيئين منذ فترة، وقبل حتى أن ألقى الطفل، بالطبع تذكرين تلك البئر بالباحة الخلفية بدار الإيواء.

نعم، أذكرها لطالما حلمت بها، أما الجملة التي قالها،

فقد سمعتها في إحدى النوبات التي تنتابني من حين لآخر، هل تعلمين من قالها؟

نظرت له مستفسرة، فأكمل: الشيطان. الشيطان يا أمي بعدما هزمني، مد لي يدًا، وقالها، ولم تفارق خيالي لحظة حتى سمعتها من أدهم. والأعجب أني لم أروِ رؤياي تلك على أحد، حتى أنتِ، فتلك أول مرة أتحدث معك في هذا الشأن، فمن أين عرفها!

ربتت الأم على كتفه، يا آدم يا ولدي هذا شيء بعيد، ومن أين للطفل الذي لوثت والدته ذهنه بمعرفة الغيب، حتى الشياطين لا يعلمون الغيب يا ولدي، الأمر لا يعدو كونه مصادفة لا أكثر، هلوثة وخزعبلات من عقل مريض، وجدت أرضًا خصبة في ذهنك، هذا الذي لا يهدأ، فأنبتت وأورقت، واحتلت عقلك، وشغلت تفكيرك. الأمر أبسط من هذا بكثير.

ابتسم بوجهها فرحًا، آه يا أمي لقد أرحْتِ قلبي بكلماتك تلك، لا أخفي عليك أني بالرغم من كشفي للغز وعلاجي لمشكلة الطفل، وبالرغم من مرور أسابيع على ما حدث، إلا أنني ظللت مشغولًا حقًّا بهذا الأمر، بينما أنت فسرتيه بمنتهى البساطة، خزعبلات، وهلوثة عقل مريض. صدقت يا أمي، أنت أعظم طبيب نفسي في الوجود، أمسك بكلتا يديها، وانهمر عليهما تقبيلًا، ثم قام في عجل، سوف أستحم وأقوم بتغيير ملابسي؛ حتى يأتي الضيوف ويُجهز

العشاء، فأنا أشعر بجوع السنين الماضية.

الفصل الثامن

مريض نفسي أم ممسوس

2016

خرج آدم من الحمام؛ ليرى جواله لا يتوقف عن الرنين بتلك السيمفونية الرائعة التي يعشقها، نظر في شاشة المحمول، فوجد اسم دكتور أحمد صديقه يرتجف، فأجاب في الحال: جاءه صوت أحمد من الجهة الأخرى للهاتف في منتهى القلق، هناك شيء خطير جدًّا حدث يا آدم.

خيرًا- إن شاء الله- لقد أخفتني.

أدهم.

تحدّث، ما به؟ ماذا حدث؟

لقد عادت تلك النوبات.

ماذا؟

أنت تعلم أن الولد يعيش الآن بكنف أبيه، بعيدًا عن والدته، بينما تم إيداعها بدار لإعادة التأهيل النفسي، بالطبع أنت تعلم أن والده رجل أعمال، وغير قادر على التواجد طوال النهار، فاستأجر مديرة للمنزل؛ لتهتم بالصبي، بالإضافة إلى فتاة لخدمتهم، كانت الأمور تسير على أكمل وجه طوال شهر كامل منذ اكتشفت أنت خداع والدته، حتى

مساء أمس.

ماذا حدث؟

لقد تأخّر عن موعده في الاستيقاظ فذهبت الخادمة لتوقظه، استجاب لها وفتح عينيه بالفعل، ولكنه جعل يقذفها بأبشع الألفاظ، ثم تهجم عليها، وحاول اغتصابها.

ماذا تقول؟ أدهم طفل في الثامنة.

هذا ما حدث لقد حاول التعدي عليها، وعندما قاومته أخذ يضربها بعنف، ولولا تدخل السيدة مديرة المنزل، الله وحده يعلم ما كان ليحدث.

ما زلت غير قادر على استيعاب ما تقول، أدهم الطفل ذو الثماني سنوات حاول اغتصاب الخادمة.

أجابه أحمد بصوت مضطرب: نعم، يا آدم، لا بُدَّ من علاج سريع لهذا الأمر.

أين أنت الآن، أريد أن أراه في أسرع وقت، دبر لي موعدًا مع والده.

والده هو من قام بالاتصال بي بالفعل، وأنا أجلس معه الآن بانتظارك.

ربع ساعة على الأكثر وأكون معكم، أغلق الهاتف، وأخذ يجول بعينيه في الموجودات حوله، جعل يعيد كل المشاهد في ذهنه منذ أول لقاء مع الطفل، ثم نفض ذلك التفكير،

وأسرع يرتدي ملابسه وانطلق للخارج، عندما استوقفتنه والدته متسائلة: إلى أين يا آدم؟! الضيوف قادمون والعشاء شبه جاهز.

قبلها على جبينها: لن أستطيع يا أمي هناك أمر طارئ.

ماذا حدث، ألن ترى أخاك، ودولت؟

أنا جد آسف، اعتذري لهم بالنيابة عني، الطفل الذي حدثتك عنه منذ قليل، انتكست حالته ثانية.

أطرقت الأم تفكر: هل تعني....

لا أعلم يا أمي، كل الخيارات متاحة، استأذنها بسرعة، وأسرع يركض على السلم، أدار محرك سيارته، وانطلق إلى منزل الطفل.

نفس الفيلا الصغيرة البيضاء بذلك الحي الهادئ، ولكن المنظر قد اختلف كثيرًا الآن، لقد قلمت الأشجار وتم قص الحشائش، بدت من بعيد كأحد القصور التي تم تجديدها حديثًا، دقَّ جرس الباب، ففتحه أحمد بسرعة وكأنه كان يقف بجواره منتظرًا، دلف للداخل؛ حيث رحّب به والد أدهم، الذي أعاد عليه نفس الرواية التي أخبره بها صديقه منذ قليل، جلس ثلاثتهم بغرفة المعيشة بالأسفل، بينما طلب منهم آدم مقابلة مديرة المنزل والخادمة.

ثوانٍ، وحضرتا، طلب منهما آدم الجلوس، كانت مديرة

المنزل سيدة وقور، أنيقة خمّن عمرها في بداية الأربعينات، بيضاء نحيلة واسعة العينين، تعقص شعرها خلف رأسها في أرستقراطية بائدة، جلست في هدوء وبدون مقدمات، بدأت تحكي: الأمر يا سيدي لم يبدأ اليوم، بل بدأ منذ ثلاثة أسابيع تقريبًا، ساعتها كنت وحدي بالمنزل مع أدهم، كنت أرتب بعض الملابس عقب غسيلها وأنظمها بالدواليب، وأثناء مروري أمام غرفة أدهم، سمعت صوتًا خشنًا لرجل يتحدث بكلام بذيء، لا أخفيك قولًا إني اضطربت كثيرًا، وحسبت أنّ هناك لصًّا بغرفة الولد، ففتحت الباب مسرعة، ولكني ولدهشتي الشديدة لم أرَ أحدًا غير أدهم، كان جالسًا على سريره مبتسمًا يمسك بأحد ألعابه، ظللت في مكاني مذهولة ما يقارب الدقيقتين، ولأكون أكثر صراحة معكم، فإني فتشت الغرفة نظرت أسفل السرير، داخل الحمام، ولكني لم أعثر على أي أثر لأي مخلوق، سألته بلطف: هل كنت تحدث أحدًا يا أدهم؟

ساعتها، ابتسم لي بطرف فمه، وقال متهكمًا: وهل هناك أحدٌ لأحدثه؟!

نظرت صوب والد أدهم بخجل، وأكملت بالطبع تريدون أن تعلموا لماذا لم أخبر والد أدهم بالأمر؟ وأطرقت تنظر للسجادة الصوفية بالأرض، ثم رفعت وجهها، وأغمضت عينيها، قائلة:

بصراحة لقد خشيت أن يتم اتهامي بالجنون، أو بتهويل

الأمر، خاصة أنني لم أملك أية دليل على ما أقول، وبالفعل لم يكن هناك أي أحد، تكررت هذه الحادثة أكثر من مرة، أسمع بالداخل صوت غريب لرجل، والأعجب أني سمعت ذات مرة صوت امرأة، وعندما كنت أدخل لم أكن أجد شيئًا، أعزيت الأمر لاضطرابي، وقلة نومي، خاصة أن لدي بعض المشاكل الأسرية في الآونة الأخيرة، حتى....

وقطعت كلامها ناظرة إلى الخادمة، حتى حضرت سعاد إلي صباح يوم منذ أسبوع مضى، جعلت الخادمة تومئ برأسها موافقة، بينما أردفت مديرة المنزل، وأفضل أن تخبركم هي بروايتها بنفسها.

تحولت أنظار الجميع إلى سعاد، فتاة جميلة عيونها بندقية، سمراء في أوائل العشرينات تقريبًا، متوسطة الطول، تغطي شعرها بطرحة سمراء وترتدي ملابس بسيطة، ولكن محتشمة تبدو أوسع منها قليلًا، تنحنحت سعاد، ثم قالت: الحق أقول أدهم بك طفل أكثر من رائع، مهذب لطيف، دائمًا ما كان يطلب مني أن ألعب معه، كنت أحيانًا أستجيب، وأحيانًا أمتنع لكثرة الأعباء والمهام المنزلية، حتى كان ذلك اليوم الذي تتحدث عنه السيدة رباب، عندما طلب مني اللعب معه، ولكني رفضت، ففوجئت به ينهال عليّ سبًّا، ثم صفعني على وجهي بقوة، اضطربت كثيرًا وخفت.

أنا لم أتعود قطُّ على مثل هذه المعاملة، ولكنه مهما فعل، فهو طفل، وأنا في حاجة ماسة للمال من هذه

الوظيفة، فلم أرد أن أصنع مشكلة، فقط أخبرت السيدة رباب، وعندما سألتني إن كنت لاحظت أية تصرفات غير طبيعية على أدهم بك، تذكرت أني رأيت ذات يوم بين يديه بعض الرسومات التي يقوم برسمها، عندما دخلت عليه الغرفة كانت الرسومات تحوي الكثير من الفتيات العارية، وبعضهن كان مذبوحًا من الرقبة، وقد غطى اللوحة بالكثير من اللون الأحمر، ولكني ساعتها لم أتوقف كثيرًا عند هذا، بل لم أتذكرها، حتى تم سؤالي.

ثم.. ثم.. وبدأت يداها ترتجف، وهي تتحدث.

ثم ماذا؟ استحثتها على الكلام

ثم ما حدث اليوم

كنت بالحديقة بالخارج أقوم بري الزرع حين تناهى إلى مسامعي صوت أدهم آتيًا من أعلى من نافذة غرفته، أرادني أن أصعد؛ ليريني شيئًا مهمًا.

انتهيت مما في يدي وصعدت إليه، وما أن دلفت الحجرة حتى رأيت الولد عاريًا من الملابس، جذبني بقوة ناحيته، وشرع يتحسس كافة أجزاء جسدي، كانت تحكي، بينما أخذ جسدها يرتجف، وبدأت تبكي منهارة.

حاولت تهدئتها، قائلًا: سعاد، لا تخافي أريد أن أعلم كل تفصيلة، كل ملحوظة، قد تبدو بالنسبة لك بسيطة.

أكملت رغمًا عنها: جعل يتحسس جسدي، حاولت دفعه، ولكنه انهال عليّ ضربًا وصفعًا، ثم مزق ثيابي، قام بعضي، وأكاد أقسم لكم أنه لم يكن يتحدث اللغة العربية، كان يتحدث لغة لا أعلمها، يهذي بها، وأعتقد أنه لم يكن صوته أيضًا، بالطبع كنت مضطربة وخائفة، رحت أصرخ، وحاولت الخروج من الغرفة، ولكن الباب بدا، وكأنه مغلقٌ بمفتاح من الخارج، حاولت كثيرًا بدون استجابة في حين كان هو مستمرًا في التحرش بي، فاضطرني أن أدفعه بعنف، فسقط أرضًا، ثم قام، وبدا أنه عاد طبيعيًا، ونظر لي متعجبًا، واستفسر عمّا أفعله بغرفته بملابسي الممزقة، وعمّن فعل بي هذا، عندما حضرت السيدة رباب، وفتحت الباب بمنتهى اليُسر، كانت الفتاة تنتحب، وهي تقسم: والله هذا ما حدث، لم أكذب في أي شيء، واللهِ إن الباب كان مغلقًا، ثم تم فتحه بعدها بمنتهى اليسر، هناك شيء غير طبيعي أبدًا في هذا الطفل.

هدأ آدم من روعها، بينما قامت السيدة رباب فاحتضنتها، وأخذتها معها، تاركتان إيانا في دهشة شديدة.

كان والد أدهم أول من تحدث: يبدو يا دكتور آدم أنك ظلمت زوجتي، وأنك أخطأت التشخيص.

رفعت عيني فجأة بعينه، وأردفت تلقائيًّا: مستحيل، تحاليل الدم، وتحاليل العقاقير التي أعطتها له كانت واضحة، بالإضافة إلى شبه اعترافها هي شخصيًّا في

النهاية. ثمة شيء عجيب مبهم في هذا الأمر، حركت رأسي لأنفض عنها الاضطراب، أنا شككت بالفعل، ولكني لم أستطع أن أجزم.

بماذا شككت؟

جاء السؤال من والده.

شككت أن الأمور ليست كما تبدو عليه، ربما أصابه لبس حقيقي من جراء ما حدث له مع والدته، المثل يقول: إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية.

تعجبت من نفسي؛ لأني استخدمت كلمة ذئب، ربما كانت تلك علامات وربما لا.

دعونا من كل هذا، ولننظر أدهم؛ لنرى ما أصابه.

صعد ثلاثتنا، لغرفة الطفل، سماوية الحوائط، إلا أن والده أضاف بعض ورق الحائط الطفولي الملون خلف سريره بألوان تتناسب مع لون الحجرة، فصارت أكثر بهجة، وأكثر طفولية، الغرفة كانت نظيفة جدًّا بالفعل، كان أدهم على سريره، يمسك بالألوان ويقوم بخط بعض الرسومات، حييته مبتسمًا واقتربنا حتى جلست بجواره، تأملت ما يرسم، كان منظرًا طبيعيًّا لبيت أبيض، له حديقة بالخارج، ولكني لمحت في أحد النوافذ بالبيت رسمة مخلوق مقرن، لونه باللون الأسود، وجعل عينيه حمراوين، أمسكت بالرسمة الطفولية، وأشرت إلى المخلوق الذي يبدو من نافذة البيت،

متسائلًا: من هذا يا أدهم؟

ابتسم في خجل، وقال: صديق.

ًأومأت برأسي متفهمًا، إذًا هذا هو منزلك؟

ضحك بمرح، نعم منزلنا.

أشرت ثانية للكائن الأسود الذي رسمه، وأين هو صديقك هذا؟

ابتسم ثانية، وأشار بإصبعه السبابة إلى رأسه، قائلًا: هنا

أومأت ثانية متفهمًا: إذًا صديقك هذا خجول؟

ضحك جزلًا، وقال: هو لا يحب أن يراه أحد، يفضل أن يلعب معي أنا فقط، أخبرني أنه يحبني حبًّا جمًّا، لقد ترك أهله؛ لكي يعيش معي.

فاجأته بسؤالي: إذًا كم يكون عددنا الآن في الغرفة: رفع عينيه بعيني فجاة، ثم جعل يجول بعينيه في غرفته الصغيرة، ثم أجاب بهدوء خمسة.

هنا لم يحتمل الأب، وبدأت مشاعره تتجلى عندما انحنى على الأرض محتضنًا ولده، وأمسك وجهه ناظرًا بعينيه: أدهم لا يوجد أحد معنا بالغرفة. نحن الثلاثة، وأنت فقط.

Screenshot saved

فأمسكت بذراع الأب بهدوء، فنظر جهتي، فتفهم، وقام بهدوء، بينما استكملت أنا استجوابه، ترى ما اسم صديقك

هذا يا أدهم؟

هو يفضل أن أناديه نادرًا، لكنه أخبرني أن له اسمًا ثانيًا، لا يمكن أن يعلمه أحد.

ومن أين جاء صديقك اللطيف هذا يا صديقي؟

ابتسم الطفل ثانية، وهو يجيب؛ لقد أخبرني أنه سقط من السماء.

أومأت برأسي متفهمًا، ثم مسحت على ظهر الطفل ورأسه، وأشرت- للأب وأحمد- بطرفي عيني بالخروج، تبعتهم للباب، وقبل أن أخرج التفتت للطفل، ورأيت البريق في عينيه؛ ابتسم لي قائلًا: مع السلامة يا دكتور، تذكر أن ليس عليك إلا أن تطلب.

شعرت برجفة عارمة تنتاب جسدي كله، حتى أن قدميَّ لم تقوَ على حملي، ثوانٍ، واستعدت رباطة جأشي، وابتسمت له، وأغلقت الباب خلفي.

هبط ثلاثتنا للأسفل، كان الأب جزعًا بحق، حاول أن يستجديني، أرجوك يا دكتور افعل أي شيء، الولد يضيع مني ثانية.

طلبت من السيدة رباب فنجان قهوة، وأخرجت علبة سجائري، استأذنتهم في التدخين، وبدأت أعيد ترتيب أفكاري وأفكر معهم بصوت مسموع،

في البداية كانت الأم السبب في تشويش أفكاره وزرع بعض الضلالات، إما لتأثيرها النفسي عليه، وإما بعقاقيرها المهلوسة، حتى أنه أصبح مصابًا بالفعل بعدة أمراض نفسية، وتظل مشكلة العلاج الناجح باستمرار هي معرفة السبب، والقضاء عليه بدلًا من علاج الأعراض، وفي هذه الحالة قد تم بالفعل علاج السبب وهو الأم، ثم عقب أسبوعين تقريبًا بدأت تلك الأعراض العجيبة تعود للصبي، ولكن للأمانة لم ألمح تلك اللهجة العنيفة، ولا الاضطراب الشديد الخاص بالمرة الماضية، الطفل الآن بدون مؤثرات خارجية يتحدث بلسان مختلف صوتًا ولغة، ثانيًا: يؤتي أفعالًا قذرة نسبيًّا تتنافى مع طبيعته أو مرحلته العمرية، ثالثًا: يتحدث عن كيان مختلف، وبصورة مريبة، ويصر على وجوده رغم انتفاء السبب.

رشفت رشفة طويلة من فنجان قهوتي، كنت أحدق بالسجادة أمامي على الأرض، وأنا أتحدث، فاعتدلت ورفعت عينيّ إليهما، قائلًا: تشخيص وثبوت موضوع اللبس والاستحواذ الشيطاني ليس أمرًا هينًا بالفعل، وقد أخبرتكم مسبقًا عن كم الأضرار التي قد تنجم عن التشخيص الخاطئ، بالإضافة إلى التشابه الشديد والشبه متطابق في الأسباب بينهما.

اعتصرت سيجارتي بين شفتي في شوق، وأردفت: حتى هنا الأمرلا يتعدى كونه مرضًا نفسيًّا وطفلًا مصابًا

باضطراب الشخصية، ولكن هناك بعض التلميحات الواضحة بالنسبة لي، بعض الكلمات التي جاءت على لسان أدهم، ولا يعلمها غيري، فللأسف الشديد يحزنني أن أخبركم أننا بصدد استحواذ شيطاني بالفعل، وبناء عليه؛ فإن تدابير العلاج سوف تتغير كليًّا، نحن الآن بحاجة لمواجهة كائن، وليس عقلًا مريضًا. كما أنني أفضل أن نستعين برجل دين.

أومأ أحمد موافقًا، بينما تمسك الأب المكلوم بركبتي مستجديًّا: أرجوك يا دكتور، أرجوك افعل أي شيء، أيًّا كانت التكلفة، المهم أن يعود ولدي طبيعيًّا.

اتفقنا، سنبدأ غدًا صباحًا طقوس الاستخراج، بالطبع لا نريد أي فضوليين، وأشرت جهة المطبخ؛ حيث كانت السيدة رباب والخادمة.

أومأ الأب برأسه موافقًا: سوف أعطيهما إجازة مدفوعة الأجر لمدة أسبوعين، وأتعلل بأننا سننقل أدهم للمستشفى، أما أنا فسأحضر بعض المستلزمات والأدوية، وسأنتقل للعيش معكم هنا مؤقتًا؛ لحين الخلاص من هذا الشيء.

الفصل التاسع
الشيطان يكمن في التفاصيل

2016

صمتٌ تام يغلف الموجودات بالغرفة يقطعه من حين لآخر شقشقة عصفور استيقظ متأخرًا، فأصرّعلى أن يلحق بركب الصباح، زجاج النافذة الوحيدة بالغرفة مغلقًا، وإن بدا ضوء الشمس جليًّا عبر الزجاج، شرعت أشعتها تنعكس على ثلاثة أوجه؛ آدم، والشيخ عبد المطلب صديقه الذي استعان به لعلمه القوي، فيما يتعلق بمجال الماورائيات، والطفل أدهم.

طلب آدم من والد الطفل وصديقه أحمد البقاء بالخارج مقنعًا إياهم أن هناك أشياء قاسية ستحدث لن يكونوا سعداء بالمرة برؤيتها.

كان الطفل مازال نائمًا، ولكن خيوط الشمس الذهبية أصرت على مداعبة وجهه مرغمة إياه على فتح عينيه.

تثاءب في بطء، ثم ابتسم لما ألفى الدكتور آدم بالغرفة، حيّاه آدم وبادله الابتسامة، ثم عرفه على صديقه الشيخ، قائلًا: الشيخ عبد المطلب صديقي، أراد أن يأتي اليوم؛ ليتعرف عليك. حيّاه أدهم مبتسمًا.

أشار آدم للشيخ بإشارة اتفقا عليها مسبقا للبدء.

فجلس الشيخ في أحد أركان الغرفة، وفتح مصحفًا، وشرع يقرأ بعض الآيات من القرآن.

في البداية لم يستوعب الطفل ما يحدث، ولكنه قام من سريره، دخل الحمام الملحق بالغرفة، ثم عاد ليمسك بيد آدم طالبًا منه اللعب معه، جلس آدم بالفعل معه على سريره. أحضر أدهم فرشته وألوانه، وشرع يرسم بورقة بيضاء، في حين تعالى صوت الشيخ بالقراءة، وأثناء قيامه بالرسم، التفت أدهم برأسه جهة الشيخ بحركة حادة، قائلًا بصوتٍ عالٍ: دعه يتوقف.

أومأ الطبيب مبتسمًا، لماذا؟

عاد الطفل ليحدق بعيني آدم، وبصوت حاد كلفحِ النيران، صرخ: لأنه يزعجني، لا أستطيع التركيز.

ولكنه يقرأ القرآن.

لا أحبه، صديقي يكرهه، ولكن لا يوجد شخص يكره كلام الله يا أدهم.

بدأت ملامح وجه الطفل تضطرب، وبدأت أطرافه ترتجف، وهو يقول: أرجوك اجعله يتوقف.

هنا أشار آدم للشيخ بالاستمرار، ورفع عقيرته في وجه الصبي، لا بل بالعكس سأجعله يستمر؛ حتى تظهر على حقيقتك.

رجع الطفل بظهره للسرير، جعل يحرك أطرافه بعنف، فأسرع آدم يربط أطرافه بالحبال التي أحضرها معه مسبقًا، أخذ أدهم يقاوم بعنف، أسد حبيس لم يتعود على الأسْر مسبقًا، بدأ يحرك رأسه بقوة وأطلق عليهم سيلًا من الألفاظ القذرة، ألفاظ يندى لها الجبين، ثم شرع يبصق في وجه آدم، الذي اقترب من وجه الطفل أكثر غير عابئ بكم الهياج الشديد الذي يكتنفه، وسأله قائلًا: أخبرني من أنت؟

أخذ جسد الطفل يرتجف أكثر، بينما ضغط آدم ثانية على حروف كلماته، أخبرني من أنت، وماذا تريد؟

هتف الطفل بصوت مختلف، لمح فيه آدم الكثير من التستوستيرون أحبال صوتية عريضة لا ريب فيها، في نفس الوقت الذي بدأ صداع عنيف يكتنف رأسه، ويعصف بذهنه، وأخذت كلمات الصبي تتردد عبر ذهنه: سوف أقتلكم، أنتم كلكم عبيدي، مخلوقات ضعيفة، لقد تعودتم على الاستعباد.

بدأت آذانه تستقبل من بعيد ضربات طبول حادة، راحت تزداد حدتها تدريجيًّا حاول أن يطرد عبث الصبي بذهنه، ولكنه لم يستطع، اعتصر عينيه بقوة عله يتخلص من تلك الطبول التي تدوي، وخلال ثوان كان قد حلق بذهنه ورحل بعيدًا، فتح عينيه فإذا بنفس حلبة القتال التي تراوده من حين لآخر.

دقات طبول شديدة تصم الآذان، أعلام ورايات حمراء ترفرف بعضها يحمل رموز الأفاعي، وبعضها الآخر رموز لذئاب، بينما انتصب في وسط الحلبة تمامًا تمثال لشيطان، نعم، كما في الموروثات الشعبية القديمة تمثال بجسد إنسان ورأس شيطان مقرن، ويمسك بكلتا يديه بحربة ذات ثلاث شعب، دقات الطبول تزداد حدة وتعصف بذهنه لم يعد يحتمل، ثم هبط، هبط عليه من السماء نفس الكائن العملاق ذئبي الرأس هبط فوق صدره تمامًا، شرع يتشممه ويحرك رأسه في الهواء حركات حيوانية عجيبة، ثم فتح فمه عن آخره استعدادًا للانقضاض عليه، ولكنه تحامل على نفسه مقاومًا الألم الرهيب بداخل رأسه: ثم حرّك شفتيه بصعوبة، وهو ينظر بعيني العملاق:

ماذا تريد من الصبي؟

أوقف ذئبي الرأس رأسه في الهواء، وقهقه ضاحكًا: أنا لا أريد شيئًا من الصبي، أنا أريدك أنت يا آدم.

ألم تفهم بعد؟

ثم قام من فوقه، أخذ يجرجر قدميه في بطء شديد، يسير حوله في حركة دائرية، ويرسم بحربته الثلاثية الشعب خطوطًا على الأرض الحجرية الحمراء.

واحد، اثنان، ثلاثة، ....

هم عشر ثوانٍ فقط، إن استطعت البقاء صامدًا حتى عشر

ثوان، فسوف تستطيع أن تسمع صرخاتهم.

واحد، اثنان، ثلاثة.

أمسك آدم برأسه، حاول يتذكر أين سمع تلك الكلمات.

واحد، اثنان، .. ثلاثة..

ثم رآها في وسط تلك العتمة الشديدة مختبأة في إحدى الثنايا والتلافيف التي لم تسترجع منذ أمد.

فصاح بأنفاس مقطوعة "البئر"، "الباحة الخلفية للدار"، أخذ الكائن العملاق يضحك.

أبدًا ما أردت يا آدم، ولكنكم دائمًا من تريدون، وفجأة قفز قفزة عالية حتى خاله طال السماء الحمراء من فوقه، ثم هبط فوق آدم ثانية، ولكن تلك المرة غرز حربته بصدره، ألم شنيع اكتنفه، الدماء تنبجس من موضع الطعنة، ثم شعر بطعم الدماء في فمه.

أخذ الآخر يضحك باستفزاز، تركه يستعيد بعض أنفاسه، ألم أخبرك أنك ضعيف؟ لطالما كنت لا تستطيع أن تدرك؛ لضعف عقلك. واقترب منه ثانية في بطء شاهرًا حربته، وهوى بها عليه، تلقاها على سيفه الصغير هذه المرة، ولكن قوة ذراع العملاق كانت أقوى من احتماله. وكأن عشرات المطارق هوت فوقه، وأحس أن ساعده قد تحطم. ولكنه لم يمهله.

رفع العملاق يده اليسرى عاليًا؛ ليظهر بها سيف فضي لامع ذو نصْلَين. وتقدم صوبه بسلاحيه، وأقل ضربة منهما لكفيلة بتكسير عظامه بالفعل لمائة قطعة، اقترب منه أكثر. وأدرك أنها النهاية قد حانت لا محالة.. لوّح بسلاحيه في الهواء، وهو يقول: كفانا لهوًا يا إِنسي، وحان وقت الموت، وهوى بالسلاحين.. ارتجف، ولكنه تذكر، حينها فقط، تذكر أن الله هو القادر وحده، ولا حول ولا قوة إلا به، فرفع سيفه؛ ليتقيَ ضربته هاتفًا بأعلى صوته: بسم الله العزيز.

ولدهشته الشديدة وجد السيف في يده يضيء كالشمس، وعندما ارتطم به سلاحاه، فوجئ بسيف الكائن يتحطم إلى فتات، بل إن العملاق يسقط ويتدحرج أرضًا لمسافة ثلاثة أمتار من قوة الصدمة، ثم يستند على حربته، ويستقيم واقفًا مرة أخرى، ولكنه وجد ذراعه اليمنى، وقد تخثرت بالدماء، رباه فقط بسم الله قادرة في هذا العالم الغريب أن تحدث هذا الأثر.

ولأول مرة نجد العملاق يفكر كثيرًا، بل إن تفكيره وثقته القوية بنفسه أصبحت مثار تساؤل، خاصة عندما بدأت حالة هياج شديدة تظهر جلية على الجمهور الذي بدأ يصيح ويهتف بعنف ونظرات الغضب وعباراته تظهر في هتافاتهم. وهنا وجد في نفسه الشجاعة، ولأول مرة؛ ليتقدم بقدميه العاريتين تجاه هذا العملاق الذي ظل متسمرًا في موقعه لا

يجسر على التقدم. وعندما اقترب منه، خاطبه، قائلًا: من الواضح أنك لست بالقوة التي تدعي يا هذا، بل هناك مَن هو أقوى منك بكثير.. صاح بحنق، بل لا يوجد في الكون مَن يضاهي قوتي أيها الفاني، وإن صرنا نلاحظ في صوته الكثير، والكثير من التردد.

اقترب أكثر منه محذرًا: إذًا أنت لا تريد أن تنهي هذه المهزلة، ثم فجأة وجد نفسه بمنزل قديم، والدته ملقاة على الأرض، وقد تحطم رأسها بذلك الفأس الذي يحمله والده، لم يدرِ إلا، وهو يمسك بهذا المسدس الثقيل ويصوبه لصدر والده، أبوه يقترب منه بفأسه، وقد أظلمت الدنيا أمامه مِن فعل الخمر الرديء الذي يتجرعه، اقترب كثيرًا، لن يتحمل الجسد الواهن لطفل في السادسة ضربة واحدة من هذا الفأس، جسد والدته مازال ينتفض، يبدو أن الروح ما زالت ترفض أن تترك هذا الجسد، تتمسك به قبل الرحيل، يزداد تعلق يده بالمسدس، يضغط على زناد ثقيل لا يستجيب، يده أضعف من ثقل الزناد، الرجل السكير يرفع الفأس؛ ليهوي على رأسه، يضغط الزناد أكثر بكلتا يديه، وتنطلق رصاصة واحدة بأيدٍ ترتجف؛ لتستقر بوجه أبيه تمامًا مكان العين.

سقط الرجل أرضًا، وسبقه فأسه على الأرض، بقعة واسعة من الدماء تزداد خلف رأسه، رحلت الروح فورًا، لماذا لا يراه يرتجف كما جسد والدته التي مازال جسدها

الطاهر يرتجف حتى الآن؟ يرحل ذهنه ثانية، ويفتح عينيه؛ ليجد وجه الذئب يحدق بعينيه، هل فهمت، أم تُراك لم تدرك بعد؟

ثم لكمه بتلك القبضة الحديدية التي يعرف أثرها جيدًا، تحطم على أثرها نصف وجهه، وانبعجت الأرض الحجرية أسفل رأسه من قوة الضربة، خائف يرتجف، مصاب مطعون، دماؤه تنزف بغزارة، ذهنه مضطرب، لا يفهم ما يجري حوله، حاول كسب بعض الوقت.

حرك شفتيه بصعوبة: أنا لا أفهم شيئًا.

أخذ وجه الذئب يقهقه عاليًا، كان يسخر منه، وحق له أن يسخر، ذهن مشوش، فهم بطيء.

اقترب الكائن ثانية؛ ليترنم: في منزل صانع الأحذية لا توجد أحذية.

بدأ ذهنه المجهد يحلل الكلام بصعوبة، في منزل صانع الأحذية لا توجد أحذية، عبارة تعني ببساطة النجار لا يستطيع إصلاح بابه، أو أن الطبيب لا يستطيع علاج نفسه.

أو أن شيئًا لا يستطيع فعل شيء.

تحامل على نفسه، وقام بصعوبة.

نفض عن ذهنه كل شيء، ربما كانت بعض أكاذيب الشيطان وهذيانه، تسلح بإيمانه، وهاجمه، قائلًا: من

الواضح أنك لم تعِ يا هذا أني أصبحت أكثر دراية منك بقواعد لعبتك القذرة. وأنني أصبحت المسيطر. وسلاحي لا يستطيع أمثالك أن يردعوه. أخذ يضحك بهستيريا ثم فُوجئ به يهاجمه بقوة بحربة جديدة أو لعلها السابقة، فأمورهم تلك مازالت بالنسبة إليه ألغاز محيرة. كل ما كان يعلم أن معه ربي سيهديه..

وعندما اقترب منه الشيطان، رفع يده بسيفه الصغير؛ ليتقي ضربته صائحًا بسم الله. هنا تزلزل كيان الشيطان، وسقطت الحربة من يده. وارتج جسده متقهقرًا. والآن جاء دوره ليضحك.. تقدم منه شاهرًا سلاحه. بينما فرد هو ذراعيه على امتدادهما. اقترب منه أكثر، ترى ماذا سيحدث لو غرزت نصلي بصدرك يا دنيء؟. ولدهشته الشديدة أخذ الكائن يضحك من جديد، وهو أعزل بلا سلاح. تلك المرة كانت المدرجات خالية من الواضح أنها مباراة سرية، وربما تكون مباراته الأخيرة. خرجت الكلمات مخيفة من بين أسنانه؛ ابن آدم رخيص. لا يستطيع هزيمة أسياده. ونحن أسيادكم تلهثون وراء أطماعكم ورغباتكم، ونحن نشعلها بداخلكم؛ حتى تسقطوا، وأخذ يضحك باستفزاز.. كيف تضحك، ونصْلي يداعب صدرك أيها المخلوق البشع؟! اصمت.

ولكنه عاد يردد أنتم أحط المخلوقات، ونحن أسيادكم، هل تظن أن يمينك تلك ستقتلني. أنت أضعف من ذلك بكثير.

أنت الضعيف، وأنا القوي. أنت القذر، وأنا النبيل، أنت أرخص عباده، وأنا الثمين.

لم يتمالك آدم نفسه هذه المرة، أمسك رقبة الكائن الضخمة بكلتا يديه، لم يحاول منعه هذه المرة، وهو يعتصر رقبته، شعر ببرد لعابه وهو يلفظ أنفاسه، لم يعد بحاجة لسيف، فقد صار يحمل في قلبه إيمانًا راسخًا بالله وحده، فلْتمُت أيها الملعون. ظل يضغط بقوة، بينما أخذت قُوَى الشر مجتمعة تحاول أن تبعد يديه، ولكن إن كان معه ربُّه فمَن عليه، وبهدوء خرجت أنفاس الشيطان، ابتسم بانتصار، وأزال ذلك القناع الذئبي الذي طالما غطّى به الشيطان وجهه؛ ليطالعه وجهه هو.

الفصل العاشر

منزل صانع الأحذية لا توجد فيه أحذية

2016

لطالما كان للمستشفيات تلك الروائح المميزة، روائح مطهرات، عقاقير، غازات، أو ربما هي رائحة المرض، لا مجال للتعجب هنا، فبعض الأمراض بالفعل لها رائحة، ألم يسمع أحدنا عن رائحة الأسيتون التي ترتفع من فم مرضى السكري؟ رائحة الصديد في الإصابات البكتيرية الشتى، ورائحة الموت التي تنتشر بين جنبات المشرحة، حتى المستشفيات النفسية، والأمراض غير العضوية لم تنجُ من تلك الوصمة،

شهران مرا الآن منذ ذلك اليوم المشؤوم، أليس هناك أي أمل في الخلاص يا دكتور؟

كان هذا أحمد صديق آدم، وكانت تقف بجواره السيدة فاتن والدة الأخير كانا يستفسران من الدكتور طه أستاذ الصحة النفسية بكلية الطب البشري، وأستاذ آدم، بينما يرقد أمامهم آدم على سرير الفحص، وقد تم تكبيله بالأربطة، كانت الدموع تنهمر في شدة كالشلال من أعين تلك المرأة الباسلة، وهي تمسك بساعد الطبيب تستجديه؛ ليفعل أي شيء.

تنحنح الطبيب، وكأنه بصدد إلقاء محاضرة علمية طويلة، ثم قال: آدم يعيش في عالمه لم يستطع أن يبرحه منذ ذلك اليوم، الضغط النفسي الشديد الذي عانى منه، خاصة أنه تسبب في موت الطفل أدهم، لم يستطع أن يغفر لنفسه، فوضع ذهنه فورًا بدائل منطقية، أنه كان يحارب الشيطان، وأنه انتصر عليه وقتله، بينما الحقيقة المؤلمة أنه قتل الطفل خنقًا، وهو يحسبه الشيطان، لا ريب أن ذلك الورم القديم لم يترك مخه في حاله أبدًا، بل ظلت لعنته تطارده حتى اليوم، بالإضافة إلى المأساة الشديدة التي تعرض لها وهو طفل، مِن قتل والده لوالدته، وقتله هو لوالده بالرصاص، كل تلك الأشياء تركت ندوبًا قوية لم تُشفَ ولم تندمل، انتظرت الوقت المناسب؛ لتلتهم عقله من جديد، ولكن كلي أمل أن يستطيع العقار الجديد الذي أضفته له اليوم أن يزيل تلك العتمة عن عقله ويجعله يعود للواقع من جديد.

تساءل أحمد ثانية: أستاذنا، أنت تعني أن كل تلك الافتراضات عن المس الشيطاني، والاستحواذ، وتلك الأمور، كانت وهمًا؟

أومأ الطبيب برأسه موافقًا.

ولكن الطفل كان يأتي بأفعال عجيبة، يحدث أشخاصًا افتراضيين، يتكلم بصوت مختلف، يتحرش بالخادمة، كل هذا لم يكن مسًّا!

ابتسم الطبيب في هدوء وأردف: كل المرضى النفسيين يا بني يأتون من الأفعال أعجبها، يتحدثون مع أشخاص وهميين، بعضهم يعتقد نفسه جنيًّا، والآخر يظن نفسه إلهًا. والطفل كان مصابًا بانفصام شديد، مع اضطراب حاد في الشخصية، وكان بحاجة ماسة للعلاج مما فعلته به والدته، ولكن ذهن آدم المشوش، هو الذي جعلكم تسيرون في هذا الاتجاه.

أومأ أحمد متعجبًا، وهو ينظر للأرض، تذكر كلمات آدم: المرض النفسي والاستحواذ الشيطاني يتشابهان إلى أبعد حدود، حتى أن بعض العلماء ذهبوا إلى أن معظم الأمراض النفسية هي في حقيقة الأمر مس من الشيطان.

هنا صاحت السيدة والدته: ولكن... ولكن آدم كان شديد التحفظ لطالما رفض موضوع الْمس هذا، كان يؤكد على الفحص الطبي، وأن تشخيص الْمس هذا ليس بالأمر الهين.

آدم يا سيدتي شديد الذكاء، ذكاء غير طبيعي، ولكن ذهنه وذكاءه الحاد هزماه، ألقيا به في غيابات جُب لم يستطع أن يخرج منه، ولكني آمل أن ينجح العلاج هذه المرة.

يدلف الطبيب غرفة آدم، فيبتسم الآخر في وجهه، يسأله الدكتور طه عن أحواله اليوم، أيضًا يبتسم في وهن، ينظر إلى يديه المكبلتين إلى جانبه ويقول: كل شيء على ما يرام يا دكتور طه، بالله عليك أنقذني، ذهني مرهق بشدة

بسبب كل هذه الأدوية، أنت تعلم مثلي، بل أنت من علمتني أن العلاج النفسي في المقام الأول لا يعتمد على العقاقير والأدوية، بل يعتمد على ذهن المريض واعترافه بمرضه.

وأنا لم أعد مريضًا يا دكتور، لقد فهمت الحقيقة جلية، الطفل مات، ذهني صور لي أنه مصاب بمس شيطان، كما صور لي ذهني أن الطفل هو الشيطان فحاولت قتله، وللأسف مات بين يدي، أنا حقًّا آسف لما حدث، ولكنني أدركت الحقيقة، أنا لم أعد مريضًا.

ابتسم الطبيب في حذر محاولًا التأكد مما يقول؛ وماذا عن اسم الله الأعظم الذي كنت تقاتلهم به، وقدراتك التي اكتسبتها في تحريك الرياح والسفن.

يضحك آدم في ضعف؛ كان ذهني مشوشًا، عقلًا مريضًا، لا تنس ما تعرضت له في طفولتي، هل تتخيل أنني صرت أحمد الله على تلك التجربة رغم كل شيء، فلقد رأيت الحقيقة في النهاية، وعلمت المصدر الرئيس لذلك المرض الذي طاردني طوال سنين، تلك الرواسب النفسية التي ظلت مختبئة طوال تلك السنوات؛ بسبب موت والدتي وإقدامي على قتل أبي، ورغم كل المحن إلا أني خرجت منها أخيرًا سالمًا بحمد الله، وبفضل مساعدتكم.

تهللت أسارير الطبيب، وقال بفرحة: إذًا أنت تعي جيدًا مرضك النفسي، وأن تلك الرواسب من الماضي هي التي

أثرت على شخصيتك. عمومًا يا أدم، سوف أقوم بمتابعتك ليومين آخرين، فإذا تأكدت من عودتك بكامل وعيك، فسوف آمر بخروجك من المستشفى، لكنك لن تكون قادرًا على العودة لممارسة عملك قبل شهور.

ابتسم آدم، وأشار بعينيه للقيود التي بيده، فنادى الطبيب بسرعة على الممرض، وأمر على الفور بفك قيده، جعل يتحسس معصمه في سعادة قائلًا: "بيت صانع الأحذية لا توجد فيه أحذية".

اقترب منه الطبيب متسائلًا، ماذا تعني؟

ابتسم قائلًا: أعني أنه حتى الطبيب لا يستطيع شفاء نفسه.

أومأ الدكتور طه مبتسمًا، وربت على يده، وودعه خارجًا من الغرفة؛ ليبشر أهله بالشفاء.

ابتسم آدم ابتسامة خفية ملأت فيه، وسرح بذهنه في عالمه ذي السماء الحمراء، والسحب التي تلقي شواظًا حارقة، كان يعلم جيدًا في قرارة نفسه أنه صار الأقوى على الإطلاق في هذا العالم، الذي يرتجف بسم الرحمن، بعدما كلفه ربه بتلك المهمة الأخيرة التي يتعذر على أمثال هؤلاء الأطباء فهمها، الأمر جد خطير والتكليفات الربانية لا يستطيع أحد أن يتجاهلها، اختبر كافة أسماء الله الحسنى، وما لها من تأثير ساحق على كل الموجودات، صار يأمر

السحاب فيأتمر، ينزل المطر بالاسم الأعظم الذي منَّ عليه الله باكتشافه، لم يعد ينقصه إلا إحياء الموتى، بإذن الله.

تمت بحمد الله

الأربعاء 5 مايو 2021